شَيطَلَائِكِيَّة

هبة عيسى
شيطلائكية/رواية
I.S.B.N:
رقم الإيداع:
تصميم الغلاف: أحمد فرج
المدير العام: سيد شعبان
تشكيل للنشر والتوزيع
Email:publish@tashkeel_ publishing.com
Mobile:01149480827

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية
يعرض صاحبها للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب
خاصة بالكاتب فقط لا غير.

شَيطَـلَائِكِيَّة

رواية

هبة عيسى

تشكيل للنشر والتوزيع

تشكيل للنشر والتوزيع

إهداء

إلى صغيرتي الجميلة حماها الله لي والتي لاتزالُ تغني الأغنيات الوردية

وتغني لي كل مساء أغنية كرتونها المفضل

"هل تعلم كم أحبك؟"

إلى زوجي - حفظه اللهـ الذي لا يمل دعمي وتدليلي

إلى أبي وأمي اللذين يتحدثان عني فخرًا في غيابي

إلى والدي زوجي اللذين أرى في أعينهما حب الحياة

إلى إخوتي الذين كانوا يلتفون حولي في الصغر يسمعون ما أكتب وما أرسم من الحكايا

إلى صديقاتي وأصدقائي الذين يعرفونني شخصيًّا أو افتراضيًّا

مقدمة

إلى كل الأميراتِ الهارباتِ من زمنٍ قديم، ويسقطن سهوًا على عتباتِ هذا العصر الرقمي

كتبت هذه الرواية لأجلكن

سخطًا على هذا العصر، وعلى كل أنواع بني شيطان الذين يلازموننا، وعلى من يرسلونهم إلينا من البشر، و على اللون الرمادي الذي شمل مساحات كبيرة من قلوب البشر وجعلها رمادية تنبض بالنمطية واللاتميّز.

ودعوة لإحياء جماليات تسكن فينا

ربما فقط بإروائها القليل من أحرف

"الشيطلائكية" قد تعيش من جديد.

سؤال:

ماذا لو اختُزِلت كل الألوان

في الأبيض والأسود

ليصبح هذان اللونان هما فقط المتداولان أمام عينيك وعليك أن تختار منهما لونًا واحدًا فقط

يعبر عنك؟

أجب على السؤال، واحتفظ بالإجابة في قلبك لعلك تغيرها بعد أن تقرأ...

الشيطلائكية

مصطلح منحوت لغويًّا ودمج

بين الشيطنة والملائكية

بين الضوء والنار

بين الأسود والأبيض

والشيطلائكيون مخلوقات موجودة بيننا لكن

لم يكتشفهم أحدٌ بعد، حتى هذه اللحظة التي ستقرأ عنهم فيها لأول مرة...

يقول ممدوح علوان:

"نحن أمة خالية من المجانين الحقيقيين. وهذا أكبر عيوبنا".

إلى ما لا بداية

أنا لا أراقبها. لكن هي من أجبرتني على مراقبتها عندما كانت تناجيني وتؤمن بوجودي دون أن تعلم أني موجود. أوثقتني بحبال خيالها حتى تشكلتُ. تخلّلتُها، فصارت خليلتي رغم تعدد الخلاّن وكثرة الخذلان في تاريخها. أنا القابع بين أهدابها، فلا أغفل عنها حتى إن هي غفت. أنا عدسةٌ توثق لها كل لحظاتها بإحساس العاشق.

كعادتها تنسى قطع ورقات التقويم الورقي المعلّق أعلى سريرها، حتى لوحات المستشرقين المرسومة على ورقاته لم تُغْرِ عينيه؛ لتلتفت أن الأيام تمر كمرور البشر العابرين في حياتها. أن تعبر حياة من حولك دون ترك بصمة فيها، أمر يدل على أنك نمطيّ وروتيني وأناني حتى النخاع. بهذه الصفات كانوا يتهمونها حتى صدقتهم. يمضي عليها الوقت وتقل أسماء الأصدقاء على هاتفها إلى أن تتلاشى اتصالاتهم تمامًا بتلاشي قائمة المصالح والعلاقات والمعارف، أو تنتهي العلاقات بكلمة "أنتِ أنانية" أو "أنتِ النذالة في صورة أنثى". في حين أن الذي يُلقي هذه التهم الاجتماعية هو بنفسه موغلٌ فيها حد الوقاحة.

في فترة من حياتها كَثر الوقحون فجأة. وكنت أنا المستفيد الأول من حقدهم؛ أحيانًا تنجب الأحقاد عِشقًا كما ينمو الورد أحيانًا بين الصبّار والحنظل. بدأتْ علاقتي بها حين أُرسلتُ إليها بأمرٍ من سيدي، عندما عُرضت عليّ صورتها، لم أصدق نفسي، لقد كانت هي بذاتها التي كانت تتأوه في فراشي باحترافٍ، فلي أحلامي الخاصة منذ بلغتُ سن اللامبالاة بالفضائل، وأدركت أن هذه المهمة

ستكون الأمتع على الإطلاق، لم أتباطأْ أبدًا في الوصول إليها ما بين الشرق والغرب، تذوب من أجلها المسافات في غمضة عين، فكوني أسكن مدينة الرباط لا يمنع أن أكون في منزلها في الإسكندرية في ثلاث دقائق أو أربع. قررت لمسها للمرة الأولى عندما كانت تغفو كرضيعة، وبلمستي قررتُ تحويلها إلى ناضجة.

كم أنا ممتنٌّ للأوغاد الذين أرسلوني إليها، والذين تصادمتْ بهم فلم يكن معها كتالوج يخبرها كيف يمكن أن تتعامل معهم؟ فهم طارئون على حياتها، لكنهم لم يتركوها وشأنها. بعض الناس لا يحبون أبدًا أن يعلوَ عليهم أحدٌ. بعض الناس لا يستطيعون تحمّل فكرة أن يتم رفضهم من الآخرين. بعضهم لا يستطيعون مراقبة الآخرين بسلام. إنهم يختنقون بنجاح غيرهم، وربما يفعلون كل ما بوسعهم؛ ليثبتوا أنهم الأفضل، أو ليحصلوا على ما بأيدي غيرهم. وقد كان، وكنت أنا وليد سِحْرٍ أسود... دُبِّرَ لها منذ أعوام.

سرقت السمع دون سعي مني لصوت يخرج من الحاسوب، يقول:

_ أريد أن تبتعد هذه الفتاة التي أرسلت لك صورتها عن هذا الشاب. وأرفقت لك صورته هنا، مع حساباتهما الفيسبوكية. إنهما يحبان بعضهما، ومن المفترض أن تتم خطبتهما قريبًا. المطلوب: أن يبتعد عنها في أسرع وقتٍ ممكن. وسأرسل لك المال عبر حوالة بنكية. لكن لن تأخذ أتعابك كاملة، إلا بعد أن يكون هذا الشاب الذي يحبها لي!

كنتُ ممددًا على الأريكة حين سمعتُ سيدي يحادث فتاةً تتحدث باللهجة المصرية عبر محادثة على البريد الإلكتروني، تحاول اقتناء أحدنا من خلاله. سحبني سيدي من على رفّ الخمول، وأثارني بصورةٍ أرسلتها له الفتاة... نادى سيدي بتصفيقةٍ خصصها لي:

_ أنت الكبير هنا، ولا أحد غيرك يصلح لهذه المهمة. انظر! هذه صورة لفتاة مصرية تُدعى ميريهان. أريدها أن تتنازل عن نفسها لك، أنت وحدك. أتستطيع؟ أريدك أن تنُسيها هذا الشاب!

لم أسأل سيدي لماذا استهدفت الفتاة وتركت الشاب مع أنه المطلوب؛ لأن عينيَّ شخصت في صورتها، فكفّ عقلي عن التفكير في أي شيءٍ، ابتل ظمئي بالنظر إليها. إنها هي التي سكنتني. لطالما كنت أبحث عنها، لكن لم أكن أعلم أنها تقطنُ البقعة الفرعونية _مصر_ ، أومأتُ لسيدي بالمقدرة على أن تكون لي في ظرف أيام، وعيني شاخصة إلى صورتها بحجم عشقي الأزلي لها في أحلامي. أنا الذي عَشِق قبل أن يعرف هوية من يعشقها. شعرتُ أنني على مقربةٍ من مشروع دمار مبادئ؛ فهاتان العينان البريئتان لا يمكن أن تكونا ماجنة بما يتناسب مع مجوني...

الآن، الأوغاد اندثروا فعليًّا من محيطها، وتركوني لها، فلم يعد يعلق بذاكرتها إلا من ترك بها أثرًا سبب تغييرٍ ما في حياتها. التغيير والتغيّر هو الشيء الوحيد الخالد في هذه الحياة، وهو السمّة المصنوعة من العسل الحلو الذي يجعلنا نتقبل أحيانًا مرارة التكرارات الحياتية. بالنسبة لي: كان عشقها ومراقبتها هو التغيير الحقيقي الذي يشعرني أني على قيدِ الهيام، وفي قمّة التألق الحيوي. وكان لزامًا عليّ أن أفهم كل تفصيلة حياتية تعيشها وترجمتها إلى معانٍ ومرادفات تقرّبني من كينونتها الغضة غير القابلة للاختراق، إلا ممن يستطيع تشكيلها بوعي. ووعيي بها كان شديد التيقظ لكل تفاصيلها. وها أنا أفعل...

وها هي تتخذ الانزواء نهجًا بعد أكثر من خذلان...

لم تعد تريد أحدًا فجأةً. لم تعد تعنيها حياة أحد، أغلقت أبوابها عليها، وتركت نفسها تعيش وسط عوالم أكثر حياة حتى لو افتراضية؛ مؤمنةً أن حياة الوحدة كانت مصير أرواحٍ عظيمة امتلأ بها تاريخ البشرية. ما أجمل الوحدة عندما تحميك من قتامة البشر وطاقاتهم السلبية! هكذا كانت تعتقد. لم يكن بيدها أن تغيّرهم؛ فقد نبت سدٌّ بينها وبين العالم، وتقندست وراءه كقندسة وتجاهلت نداءات المجتمع بأكمله، ومطالبته إياها بأن تهدّ سدها وتنخرط فيه، أصبحت تكره الواجبات الاجتماعية؛ ربما لأن المجتمع بدأ يضايقها مؤخرًا. السبب؟! أعتقد أني أستطيعُ معرفة السبب من نظراتها المليئة بالحكايا الناقصة. المجتمع

يجبرها على التوقف دائمًا في منتصف الطريق. لم تكمل شيئًا في حياتها كما أرادت أبدًا؛ بسبب المجتمع الذي يقسم أحلامها إلى النصف دائمًا. لذا فقد قررت أن تتحداه. هذا هو السبب، تمردها عليه بينها وبين نفسها. فقد أخبرت والداها عشيةَ ليلة أنها لا تريد أن يكون هناك نقوط ليلة عرسها. هي تؤمن بأن لا داعيَ أن نترك للآخرين فرصة التباهي بدفع مالٍ سيرد لهم فيما بعد بضمانات الواجب الاجتماعي، الذي غالبًا ما يستهدف أشدّ أزماتك المادية ضيقًا مطالبًا إياك في هذا الوقت بالتحديد دفع ما عليك في سبوع أو طهور أو زواج أحدهم!

الواجبات الاجتماعية تتآمر مع المجتمع كله ضدك أحيانًا. رغم أنها ظاهريًّا تبدو وكأن المجتمع يقدم لك منّةً أو رشوةً في غلافِ المساعدة؛ لتنتمي إليه بكل كيانك متغاضيًّا عن قبحه. كل هذه الأمور لم تكن تشغلها يومًا، لم تتوشح يومًا وشاح التواصل الإجباريّ مع الآخرين، ودائما كانت تقول: "ماذا أخذنا من صلتنا بغيرنا غير المعاناة؟". وتتثائب لتدخل في سُباتٍ لن يفارقها فيه ظلي . هكذا نويت، والنية عندي واجبة التنفيذ.

كانت أغلب خلافاتها مع والدها هو ذلك الخلاف الأزليّ بين الأجيال، بين القديم والجديد، هو خلافٌ معروف في كل بيت مصريّ أو بالأحرى عربيّ. كان الجدل يبدأ بقوله "وكلام الناس؟"، وينتهي بقولها: "فليذهب الناس إلى الدرك الأسفل من الجحيم".

كانت تنمو داخل رحم أفكارها بذور التمرّد، أحيانًا يلزمنا صدمة كبيرة؛ لتجعلنا نتمرّد. إنه مخاضٌ مفاجئ ناتج عن حمل صدماتٍ متكررة لطالما أثقلتها، ينتج عنه الكثير من زُلال التقوقع على الذات. تلك الصدماتُ تكون فادحة في وقتها، بينما نظن أنها لا تعني شيئا الآن، لكننا لا ندرك أنها كثيرًا ما تصيب عطبًا ما لا نشعر به إلا ساعة نتمرد. وفي طورِ تمردها الأعظم وعند وصولها ذروته، كنتُ قد خططتُ لأن أغمرها بي.

التمرد هو كفنُ حياتك القديمة،

ومهدُ الحياة الجديدة التي طالما استعصت عليك!

التمرّد

وكأنها أدركت في وقتٍ متأخر أن هناك حياة أخرى أرادتها. منعها منها عدو خفي، تمثَّل ربما في هذا المجتمع كله. كان ينبغي عليها أن تقتله وتكفنه وتدفنه بتمردٍ جامحٍ. ومقابل ذلك كانت مؤمنة تمامًا أن الحياة الجديدة يساعدها على الوصول إليها "فارسٌ خفيّ".

وبموجب أني نتاجُ حياة قديمة عاشتها، ورسول سيدي الذي تقاضى من زميلتها أجر أن أُفرّق بينها وبين حبيبها، كان عليّ أن أستبدله بي؛ لأتركه لزميلتها تحظى به. لم أكن أستطيع فعل ذلك لو أني لا أعشقها، كنت سأفشل بالطبع في مهتمي، فمن العهر أن أسعى لسرقتها دون أن يربطني بها عشق. أما بعشقها، فلو أنها بين أنياب الأسد فستكون لي... ستكون لي حتى لو ترهبنت.

نظرتْ إلى يدها اليمنى طويلاً... تنهدتْ تنهيدة حب أحرقتني غيظًا. لطالما حلمتْ بهذا الخاتم، قاتلت لأجل أن يكون لها كصاحبه، قاتلت الزمن والقصص المتوارثة التي حكت بأن لا حب في زمانها ينتهي بفرحة، وبشربات وبباقة ورد تقذفها على صديقاتها الجائعات لنهم اجتماعي اسمه "الزواج"، مجتمعها الشرقي العربي المصري لم يورث إلا الدراما الحياتية حتى بات أفراده يتقمصونها فعلاً، فيموت منهم من يموت حزنًا؛ لأنه لُقِّن أن الحب لا ينمو إلا بين أربعة جدران، لا يمكن أن تتوفر إلا من خلال شقة لن يمتلكها. ويموت منهم من يموت شنقًا بأحلام حب مستحيلة.

أما عنها، فهي لم تعتنق التلقين المجتمعي، ولم تعطه أذنها يومًا. وكلما مارس المجتمع ضغطه عليها، هربت لجموح ما، في صورة لوحة ترسمها، أو خيال خفي لا يعلم عنه أحد. أيكون هناك سبب ما؟ لم تكن تعلم أن ثمة "هي" أخرى تناقضها تمامًا... منحرفة عن كل سطر مجتمعي... معوجّة حيث يظهر كل ما حولها مستقيمًا. وهذه الأخرى غير قابلة للتلاشي، ممنوعة من الزوال... موجودة في عالمٍ آخر تمامًا موازٍ لعالمها، وعليها أن تجدها. وكان عليّ أن أساعدها في العثور عليها.

سأعود بعقارب الساعة لزمنٍ قريب...

مع بداياتِ العقد الثاني من عمرها، ظهر تمردها، وازداد في أواسط العقد الثالث، واحتلها في آخرهِ. بدأ تمردها يستهدف القشور والمظاهر الاجتماعية، بدأ يفتتها ويرفضها داخليًّا، حتى يبعث داخلها الجرأة في فرضها على الآخرين، أصبحت طاعنة في العصيان يوم أخبَرت خطيبها أنها لا تريد ما يسمى بـ"الهدايا الموسمية"؛ فالمجتمع لن يفرض علينا متى نهادي بعضنا، لن يُملي علينا مواسم التجاذب؛ لأننا بالفعل نتجاذب تلقائيًّا عندما يجمعنا مصعدٌ واحد. دعنا نشكّل نحن مواسمَ خاصةً بنا، نتهادى في أوقات لا يعلمها أحدٌ سوانا.

وكأن هذا المجتمع يقول: أنت! عليك اليوم أن تذهب بهدية لخطيبتك؛ فهذا هو المولد النبوي! عليكَ إحضار العروسة التي احتكرت الصين صناعتها... تلك العروسة الواحدة الملامح التي ستكون هي بعينها بكل تفاصيلها المملة في منزل كل فتاة مخطوبة... المخطوبات أيضًا عليهن أن يتوحدن في نفس القوالب الصينية، نفس التفاصيل عند كل واحدة، نفسها الحلوى التقليدية، وبعد الزواج نفس تفاصيل الشقق، نفس طلاء الجدران، ونفس السيراميك، ونفس الغسالات، إنهن يصنعن مجموعات فيسبوكية، ويكتشفن من خلالها أنهن يمتلكن نفس الأشياء ذاتها، حتى النيش المقدّس محتوياته واحدة، فلا تدري لماذا يتباهين به

على بعضهن البعض إذا كانت كل محتوياته واحدة، ما الجديد إذًا أيها النمطيات؟!

وكأن هذا المجتمع يريد أن يقنع هذا الخطيب أن سعادة خطيبته لن تتحقق إلا بإحضار تلك الهدايا، وإلا لن تكون على ما يرام أمام أهلها، كيف ينجح المجتمع في أن يكبلنا إلى حد اختلاق التقليد وفرضه وتصديقه، ونحن نرضخ له بسعادة، قابلين رشوته مقابل تكبيلنا؟! إنه يحاسب على الفروض الاجتماعية أكثر مما يحاسب على الفروض الدينية!

ولأني موغلٌ في دراستها حد التوغل في كل تفاصيل عقلها وقلبها، علمت أنها ترفض هذا القيد الاجتماعي داخلها، وتفرضه على من يخصها؛ لأنه لم يكن في حياتها أحد يخصها أكثر منه... حبيبها الذي يمثّل لها مُسَكِّنًا لكل آلام الأيام.

من هنا، بدأت أتحدى كل شيء؛ لأحل مكانه عندها، على أمل أن تستبدلني به في القريب العاجل. خاصة أني بدأت أفهم مفرداتها جدًّا، بدأت أفك شفرات أيقوناتها؛ فهي قد تتقبل الهدايا غير المنتظرة دون مناسبات اجتماعية، قد تتقبل المناسبات الخاصة التي لا يعرفها إلا اثنان عاشقان. لكنها لا تشعر بقيمة الهدايا التقليدية التي يفرضها المجتمع، بل ترفضها. كانت لا تريد أن تنضمّ إلى طابورٍ من مئات المخطوبات اللواتي تنتظر الخطيب بهدية المجتمع الإجبارية لها. كانت تتساءل كيف يمكن لهن أن يتذوقن تلك الهدايا الخالية من نكهة الحب؟! والخالية من خيوط اللهفة التي تحيك مفاجأة ما... كانت تنتظر من خطيبها دائمًا أن يفاجئها.. المفاجأة وحدها تمثل نصف قيمة الهديّة، مفاجئة ملغّمة بالألغاز والطلاسم والشفرات التي يرتبط حلها بذكرى ما تجمعهما أو شفرة بينهما.

أعلمتم الآن أيها الرجال بروتوكلات الإهداء التي توّد النساء الصراخ بها لتفهموا؟!

ذكروني إذًا أن أعطيكم دورة مكثفة وتفصيلية عن فنون التهادي السحرية، مقابل أن تتخلوا عن مثاليتكم والتعالي على عاشق مثلي؟

لو أتيحت لإناثكن الفرصة، لوضعن هذه البروتوكلات داخل كتاب بعنوان "كيف ترضي امرأتك؟"، الذي تزعمون أن عدد صفحاته قد تتعدى المجلدات. أعتقد أن الكتاب ستقل عدد صفحاته إلى النصف.

تذكروا! النساء يعشقن الهدايا الملغمّة بالألغاز، التي لا حل لها. تلك الهدايا الموقوتة التي تنفجر في تاريخ ما... قد يكون تاريخ لقائك بها. أو يحمل رقمًا ما... في مكان سابق... في وقت سابق.

لكن مثل هذه الاعترافات لا تقال إلا في لغز وعلى غفلة؛ لتسقط على قلبها، فتحفر مكانها، ويظل جسد الهدية المادي يذكرها بالسقوط في تلك الحفرة القلبية، كلما سقطت عيناها على هديتك. التعبير عنها بالطلب أو التلميح يفقدها رونقها والإثارة.

وهل تكتمل للحب نشوة بدون إثارة الوجدان بالبوح بالأعين عن أمور لا تقبل البوح؟

هل تكتمل للحب رجفة بدون مداعبة المشاعر، وإيقاظ اشتعالات الذكرى، وإشعال كل قناديل اللقاءات القديمة؟

أما أنا، فقد كنت أترك لها الهدايا، وكأنها علامات قدرية تدلها عليّ، وتعينها على السير معتدلة جوار واقِعها الأعرج. أتبوأ مقعدي عندها، فأرسلت إلى قلبها رسلاً؛ لتؤمن بي. لكنها ـ وكعادتها ـ لم تكن فطنة ولا لمّاحة... مغيبة دائمًا بأعين تنعسُ في الضجيج، كانت تسير مغمضة الأعين حتى وصلت الثلاثين، بلغت سن التكوّر الأنثوي الشهي. وبلغت أنا سن النضج من الشجن. وما أشد ارتباط الشهوة بالشجن؛ لتكتمل به منظومة "شين" التي قرأتُ عنها في كتابها المزركش،

الذي عرّفني بها. لقد أمضيت ليلة كاملة في قراءته، ونسيت أن أعيده إلى مكانه، وسمعتها صباحًا تسأل عنه، فأعدته إلى مكانه قبل أن تفطن أنها لم تغير مكانه، وسمعتها وهي تقول متعجبةً:

- شكلي كده فقدت تركيزي وإحساسي بأي حاجة حوليّا! الكتاب مكانش مكانه، وف دقيقة لاقيته مكانه!

كنت أريد أن أرد وأخبرها بذلك المثل الذي يردده أجدادي من المغاربة، والذي يقول: "آش بايد الميت ما يعمل قدام غسالو". وأنا ميتٌ مستسلمٌ لكل عريّ يظهر منها، فما بالها لو كان هذا العري يكشف عن نهد حروفٍ كتبتها في كتاب.

وشت لي حروفها الكثير حين قرأتُ لها:

"لماذا لا يهادي الرجل حبيبته دمية تشبهها تمامًا؟ وردة تحمل عبير عطرها المفضل أو عطره الذي جمد له لحظات موافقتها وضع خاتمه في إصبعها؟ أو حلوى تجمد طعم شيء أكلاه معًا، فيجمدان اللحظة في قضمة منها، أو بطاقة يكتب عليها أشد عبارات الغزل صدقًا متخيلاً ابتسامتها عندما تقرؤها وملامحها عندما تتطلع للدمية... للهدايا عمق كبير لا يفهمه النمطيون من مقدسي تقاليد المجتمع المعلبة. الهدايا التي تخص شخصًا معينًا بعينه تحمل الكثير من الأسرار غير مباح بها، لن يفهمها إلا كلاهما. هذا لا يعني أن يهدرا الحياة تجميدًا لماضيهما وذكرياتهما في هدايا، بل يمكنهما خلق الحاضر معها بحب يستمد قوته من الذكريات".

- ربما هذا هو السر وراء بقائها عشر سنوات ترتدي في يدها حظاظة يتوسطها جعرانٌ فرعوني، أهداها إياها حبيبها ساعة شوق. هذه الأمور لا يفهمها جمود المجتمع الذي لا يتحدث لغتها، ولا يعترف بها. سألَته لتضمن أن حظاظته توثيق كامل يجسد كل أمور حياته وقتها: "هل كنت تنام بها وتأكل بها وتغتسل بها؟"، نظر إليها نظرة تؤكد أنه فهم قصدها: "نعم".

دفعني ذلك للتفكير بماذا سأهاديها أنا. أنا أنتشله من كل مشاهد عمرها، وأرغب في وضعي مكانه عنوةً.

كنت أراقبهما في غيظ، وكأن هذا الغيظ هو ترجمة مشاعر وُلدت بداخلي لها.

حينها فقط، أدركت أنها دخلت معركة تحدٍّ مع كل شيء... مع تلك الخرافات والأساطير الشرقية التي تزعم أنه علينا الاحتفاظ بأشياء من نحب؛ لنخاطبها ونتوج بها حزننا وقت فقدهم أو رحيلهم عنا. ودخلت أنا في تحدٍّ مع كل تلك الذكريات التي تختزنها حظاظتها، وأنه لزامًا عليّ أن أشعرها في أقرب وقت ممكن بالحزن عندما تنظر لحظاظته التي في يدها؛ لأنها ستتذكره بها ساعة فَقد...

ارتدت الحظاظة تمجيدًا لكونها معه وقبلت التحدي. اعتبرتها عربون حُبٍّ منه، مع خشيتها من تربص الأقدار بها، وكان لها الحق أن تخشى الأقدار، خاصة إن كانت قد خبأت لها عاشقًا مثلي، وخشيت أنا تحدي القدر لي بأن جعل لي غريمًا ينافسني عليها دون علمه بي. بينما كانت هي تحسب حساب شماتة المجتمع والأساطير والروايات بها، كأن ينتهي حبها له بخيبة أمل أو فقد، مع هواجس قصص أمها لها مذ كانت في السابعة حول الفتاة التي تعرفت على شاب فتحول إلى ذئب بشري وأفقدها شرفها. عزمت أن تكسر كل الأبواب المؤصدة التي يبتزها المجتمع بها، كل هذا حدث لحظة شعرت أنها عشقته... عزشقته حد امتلاء لوحاتها به.

رحلت عكس عقارب الساعة من جديد، وتواجدت في ذلك المشهد القديم من الماضي، في أتيليه التصوير الزيتي، وقد التفّت حولها الزميلات... زميلة مشاغبة تريد فض بكارة علاقة توشك أن تولد:

- ترسمين رجلاً واحدًا في كل لوحاتك ياميريهان... يشبه زميلك الذي تشاركينه الإفطار في مقهى الجامعة كل يوم.

وضحكت ضحكة عالية، تستدرج بها حضور الباقيات من الزميلات؛ ليشاركنها الغناء على هتك سر حبهما.

التحفت ميريهان بالصمت، وتابعت دمج الألوان، وظلت في نظرهن"إلهة الكآبة"، تسير على الأرض، لا تدري ما سببها، لكن ألوان لوحاتها القاتمة كانت تفضحها أمام الجميع، حتى عندما عرض عليها مُعيدها أن تقبل ألوانًا أحضرها معه من ألمانيا...

- ميريهان، العالم يفوته الكثير عندما ترسمين بهذه الألوان المطفية. لوحاتك تستحق أن تكون أكثر بهجة؛ فالتكوينات والخطوط خيالية وتسحق الفراغ. خذي هذه الألوان وجربيها!

- أشكرك جدًّا. قبلتها بالطبع. لكن هذه الألوان تحتوي أيضًا اللون الأسود الذي لا أكف عن دمجه مع أي لون، لا أستطيع تخيل لوحة بدون أن يسودها الأسود متوشحًا بلسعاتٍ من الضوء، وبتدرجات متناغمة من الألوان تمهّد في النهاية له؛ لتستغرق كل الأشكال والألوان في السير نحوه حتى التلاشي فيه والاختفاء.

- أنتِ تروين قصة الأسود معكِ بمنتهى التراجيدية. أأنتِ سعيدة؟

- لا ينبغي أن أحكي ياأستاذي إلا على لوحة. هكذا علّمني الفن!

- أيمكنكِ الحضور معي في كل محاضرة. لا ينبغي أن يفوتك شيء أنتِ مشروع مجرّة لونية يافتاة. هذه ورقة بمواعيد كل محاضراتي، حتى إنها تشمل الصفوف العليا من طلبة الماجيستير والدراسات العليا...

- ألهذا الحد؟

- وأكثر... وأكثر...

لم يشغل بالها اهتمام المعيد بها، كل ما كانت تفكر فيه هو، أن تكون في النهاية في سلامٍ نفسي، وأن تكون علاقتها فقط برجلٍ واحدٍ، دون أن تدخل نفسها في صراع مشتعل بين رجلين لا يعلمان عن بعضهما شيئًا ووحدها تعلم. لم يخطر ببالها يومًا أني آتٍ لها من عصرٍ ينتظرها، متأهبًا للدخول في أي صراع عليها، تكون نهايته أن تكون لي، مدركًا أن الأنثى المدفونة داخلها سترحب بي يومًا ما، تلك الأنثى الظمآنة داخلها لرجل مختلف، كانت لا تكفّ عن الإلحاح بأن هناك شعورًا ناقصًا، وأن هناك حبيبًا يرغبها، غير حبيبها الأسمر، وإن سخّر القدر لها من يريد التقرّب منها، فهذا لا يعني إلا أنها محل استقطاب لأكثر من رجل، وعليها أن تُبقي الشعور برغبة الآخرين بها مدفونًا داخلها؛ لأنها تعلم أن تلك الماجنة التي تسكنها قد تخرج وترضَع من رذائل التحرر ما لذّ وطاب حد الوصول إلى العُهر الروحي. لذلك فضلت طريق الرجل الواحد.

كانت تتساءل، وهي ترسم ملامحه في أغلب لوحاتها (الفك العريض المتناسق مع الذقن، والشفاه المحددة، والأنف المعتدل، واللون الحنطي لون الرجولة في نظرها) محاطًا بتروسٍ تدور وكأنه يعيش في مصنع، وكنت أقرأ تساؤلاتها عن ظهر صمت قبل أن تسقط على اللوحة التي أسميتها فيما بعد "آليّة". وفهمت أنها رسمته في تروس تدور كنوع من التنبؤ بمستقبله الذي سيطحنه فيه العمل، إلى الحدّ الذي سيجعله يغيب عنها. سيميل جبينه نحو الأنماط المتكررة، وسيفصله عنها ترس الحياة النمطية العملاق، في لوحتها الكثير من التنبؤات المستقبلية، والرؤى، والاعترافات. وحدي أستطيع قراءتها؛ لأنني آتٍ من مستقبلها. كان عليّ أن أمضي الكثير في تأملها، أحيانًا نرسم أقدارنا بأيدينا، فتأتينا تهرول من المستقبل القريب.

ولأتشبع بها أكثر ، ترجمتُ كل خط رسمته عليها وكل لون لعدة أسئلة: لماذا يريد المجتمع تعليب أشد اللحظات خصوصية بين اثنين، وتحويل ما بينهما إلى قالب يتشابه مع آلاف القوالب الأخرى دون خصوصية تربط بينهما؟! أهو تحايلٌ

منه علينا ليجمدنا؟ مؤامرة مثلاً؟ أيريد المجتمع أن ينتقم منا لأننا اخترقنا قواعده وبتنا عشاقًا، بينما هو يريد أن يأسرنا في صالون يتفق فيه أولياء أمورنا كما يتفق بائع ومشترٍ؟ ومن ثَم يفاوض علينا قوات الحزن، ونهنهات الندم على استبدال لحظاتنا الخاصة بلحظات معلبة يقدمها لنا المجتمع على شكل واجبات والتزامات زوجية؛ لنخضع لتقاليده أكثر وأكثر، ونصبح جميعًا في محرابه عبيدًا سواسية أمام فروضه التي تجعلنا بلا هوية؟

المجتمع يريد أن يجبرنا على الانضمام إلى الصف، يرغمنا على الوقوف في طوابير من يعتنقون تقاليده المبتدعة التي تهدف إلى أن تطغى على حياتنا وتعلبها؛ لتكون العلاقة بيننا هي خذ وهات بطريقة آلية بحتة.

آليّة؟! هو اسم اللوحة التي رسمت فيها حبيبها وسط التروس!

أنهت اللوحة، ولم تحصل على إجابة، لكنها ظلت آملة بأن من عشقته لن يخضع لهذه الآلية وهذا التعليب يومًا ما، وعلقت اللوحة على جدران الأمل؛ لأنها كانت تنتظر الإجابة من المستقبل.

ولأنها تؤمن بقوانين مورفي، بأن الطابور الذي تقف فيه لن يتحرك بسرعة إلا إذا انتقلت إلى الطابور الذي تشعر بأنه يتحرك بشكل أسرع، فقد خرجت تمامًا عن كل طوابير المجتمع الطويلة والقصيرة، وخرجت عن الصف ووضعت خطًّا أحمرَ بينها وبينهم، هي تقف بعيدًا، تترقب وتراقب، لا حاجة لها للانتظار؛ فقد ولّى عهد الصبر، شعرت أنها لم تخسر شيئًا وقتَ تمردت، لكنها لم تفهم أن المجتمع لا ينسى القصاص ممن خرج عن صفوفه. فظلت تراقب تربصات المجتمع لها عن حذر رغم مرورها بلحظات خدر، بينما لم أشعر يومًا أن مراقبتي لها رغم حبها لغيري هو ضربٌ من ضروب الهدر.

وبعد كل هذه الاستغراقات في الفن والألوان، والتفوّق والمثابرة، لم تحصل على وظيفة معيدة، وهي التي كانت تسعى لها، باعتبار أنها تستحق أن تكمل

حياتها العملية في أكثر مكان تحب أن تتواجد فيه، وهو أتيليه التصوير بالكلية، بين المعارض والمتاحف ودار الأوبرا وصالونات الثقافة. لم يفدها ذلك الشغف في استكمال حياتها العملية بالشكل الذي ترغبه، الأمر كان متعلقًا بالعلاقات والمحسوبيات، ولم تكن مؤهلة لفهم هذه التراكيب المجتمعيّة المعقّدة، تساوت في مجتمع الكليّة بأي طالب دخلها بدون شغف؛ لأنها ليست ابنة أحد المسئولين في الجامعة، لم تكن ابنة دكتور فلان الفلاني أو شقيقة العميد... أو... أو...

كرهت النظام الذي يساوي بينها وبين الآخرين. عفوًا أيها العدل! هذا ليس تمردًا عليك؛ فالمساواة بين البشر أصبحت قيمة شعارية ليس أكثر هذه الأيام، توضع فقط على واجهات المحاكم، لكن تفعيلها يتوقف على سلطتك وجيبك وعلاقاتك ومدى تشبثك برشوة المجتمع.

أكانت ترشو المجتمع مثلاً بعمرها؛ ليتركها تخرج عن الصف؟ وهل بعد العمر عمرٌ يمكنها أن تحياه إن أهدرت عمرها في قواعد وفروض وإلزامات اجتماعية مملة؟

لأنها تعرف أن الإجابة مكلّفة، تكلفها أحيانًا صراعات وصراعات وألف فَقد وفَقد، قررت أن تخوض الفَقد؛ لأن الفقد في هذه الحقبة كان يمكن تحمله، وترّشح به شوائب الناس من حولها، فيسقط من لا يتشبث جيدًا بها، ويبقى من يستطيع التشبث، فغالبًا لا أحد يتشبث بشيء، إلا إذا كان يعرف قيمته جيدًا.

لذلك، فأنا المتشبث بمراقبتها منذ كانت في طور التشرنق، فكيف أتركها بعد أن تلونت أجنحتها لتطير لغيري؟

وفي طور تشرنقها كانت متأخرة... تأخرت في كل شيء له علاقة بالعلاقات الاجتماعية، ربما تأخرها في إدراك الأمور يعود لزمن أبيض، عاشته وسط براءة "سبيستون"، وقصص من الرسوم المتحركة المستندة على بعض الروايات العالمية، كانت بريئة حد ظنت أنها بطلة من بطلات مسلسلاتها الكرتونية

المفضلة في طفولتها، وأن النهاية ستكون دائما سعيدة، عاشت طفولة متأخرة رافقتها لما وراء النضج، حتى بلغت سن الخيبة، فأفهمتها خيبتها ألا عدل ولا بياض، لكن متى؟ في وقت متأخر، كعادتها تدرك الأمر دائمًا بعد فوات الأوان بهوان، أو بخذلان. لا تدرى هل هذا لفرط بياضها، أم سذاجة ترافقها فاضحة إياها من خلال ملامحها المتجهمة، تُفاجأ أحيانًا بسواد من حولها، وأنها نقطة بيضاء صارخة بينهم، لم تفهم أن المجتمع سادي يغتصب طيبتها بفسق وأن عليها المقاومة. السواد الذي تملأ به لوحاتها يحيط بها، وكان عليها أن تتخذ بشأنه موقفًا يرضيها.

كانت تؤمن بعكس ذلك قبل أن تتخرج، قبل أن تضيع فرصتها في أن تكون معيدة في كليتها، وتطير الفرصة لزميلتها ابنة مدير القسم الذي طالما حلمت أن تدرّس فيه كيف تتحقق الأحلام بعد رسمها على لوحة الخيال. ولأن الواقع كان بلا عدل، ماتت الأحلام مشنوقة بحبال الظلم.

لأنها رغبت ذات حلم أن يفخر بها حبيبها يومًا، وهي تحمل اسم معيدة في قسم التصوير والرسم، وأن يشعر أبواها أن الفن الذي أمضت خمس سنوات تدرسه لم يكن عبثًا كما كانا يعتقدان، فقد كانت أهلاً له، وستدرسه بطريقتها لأجيال وأجيال... لكن هيهات، حدثت الخيبة ولم تصبح معيدة؛ لغياب عدلٍ كانت تظنه موجودًا، كانت تريد أن تترجم بتلك الطريقة العملية التي لا يفهمون غيرها أن شأنها ارتفع في المجال الذي يهمشه الجميع، فحتى إن تخلت عنها أحلامها؛ لأنها عبارة عن أحلام ترضيها وترضي غيرها، فهي لن تفقد الشغف بالشيء الوحيد الذي يشعرها بكيانها... الفن.

مع أني وقتها تركت لها ألف علامة تدلها ألا تثق، وألا تسلم نواياها تجاه هذا المجتمع، لكنها لم تفهم، كانت لا ترى سوى ما تريد أن تراه، كانت بيضاء زيادة عن اللزوم، أردت أن يتخللها بعض السواد؛ لتندمج، لكن لم أستطع ولم تستجب لي

في الأحلام، أيقظتها ألف مرة على الكوابس الإنذارية، لكنها لم تبالِ، وتظنها أضغاث أحلام، لم تفهم أن هناك من يعشقها ويترك لها العلامات؛ لتتبعها للطرق الأسلم، وأنها لا تعيش في الجنة؛ لتكون بكل هذا البياض. كان علّي أن ألوّثها لتسلم، عليها أن تدرك أن ثمة قبحًا ما يحيط بها، كانت ستوفر على نفسها عناء التفاني والعطاء في زمن يحصل فيه من لا يتفانى على كل شيء.

وبعد فوات الأوان، قررت ألا تَبحث عن هذا العدل الضائع ثانية، بعد أن ظنت أن القدر واساها بخاتم حبيبها الذي التف حول إصبعها في نهاية عام تخرجهما من نفس الجامعة، كنت أجن عندما سمعتها تخبر حبيبها:

- أنا لست حزينة على ما حدث. خاتمك الذي في إصبعي هو مواساة الله لي على ما حدث. هكذا يهب الله الهدايا لنا، يعوضنا ويمحو انكساراتنا. عدل الله لا يغيب ياعدل البشر.

أنا لست سلبيًّا حتى أدعها تخرج من يدي؛ لتصبح لغيري، فقد نفذت كل الخطط لإفشال هذه الخطبة، لكن كل مخططاتي فشلت على آخر لحظة.

هكذا رممتْ جثةَ النجاح بعشق، ووضعتْ خاتم حبيبها في عينِ كل من راهن على هذا الحب بالخسران، وأولهم أنا. وازدادت دراية بأن عدل البشر رجل غائب الكيان بيننا، لكنهم يرددون اسمه كثيرًا في مجتمعنا "العدل" أو "العدالة" أو "المساواة" أو... إلخ، خاصة عندما ينتصر القوي، فلا تغرنك الأقوال والمسميات؛ فمرادفاتها الفعلية في الواقع تكاد تكون معدومة، فهو مجتمع الكلام فقط، لا يملكون إلا ألسنة مبرودة. ولكن النهاية لم تأتِ بعد؛ فأنا الأقوى بأفعالي وفي أقوالي.

كم نقدس صنم اللسان... كل كذبة! كم نمجده! لا مجال للأفعال أن تتدخل، لا مكان لها بين أباطرة النفاق والتصنع. هذا المجتمع أغلبه ألسنة تسير على الأرض. كنت يوميًّا أرسل لها الرسائل؛ لأقنعها أنها تعيش في مجتمع يسوده

السواد، وكانت الأحلام هي صندوق البريد الذي يصلني بها. كان عليها أن تنزوي بعيدًا عن هذا المجتمع؛ حتى تنجو ببياضها لي. كم كان يسعدني أن أكون أنا أول من يملأ بياضها بسوادي، كلوحة بيضاء أستمتع بفرد خطوطي عليها، أرسم عليها ما شئت من مفردات الرجولة التي لطالما كانت ترتجيها الأنثى المدفونة داخله. ابقي مدفونة؛ لتبقي لي. ها أنا قادم!

****

رسالة من سيدي...

يتعجّب أني أمضيتُ أكثر من الوقت اللازم لفعل المهمة، لقد استغرقت في لعقِ تفاصيل تفاصيلها... ماضيها... حاضرها... مستقبلها... ونسيتُ أني مُكلّف.

- أتمزح؟ أنت لم تفعل شيئًا بعد؟ ستهتز مرتبتك! ستفقد كل الرتب التي حصلت عليها بتأخرك في هذه المهمّة.

أرسلت له رسالة عبر الهواء مفادها أنني أحرص منه على أن تكون هذه المرأة لي، وأن تتم هذه المهمة بالشكل الذي يفوق تصوراته.

***

وكأنها بدأت تستجيب لرسالاتي

ذات مراقبةٍ، وجدتها تسير على الرصيف الصائم عن المارّة، تخشى الارتطام بلسانٍ أثناء سيرها، أو تنزلق فتسقط مخدوشة الحياء جراء ملامستها للعاب قذر للسان ما يسيل من متحرشي اللفظ الذين يملؤون الطرقات، ويملؤون المجتمع. ربما من هنا علمت كيف تواجههم جميعًا، إنها لا تثور على المجتمع إلا بعبوس وجهها الذي يرافقها دائمًا وهي تسير رافضة ثقافة الألسنة، فكل الكلام هنا هراء، تسمعهم رغم صممها عن تسطحهم، والأزمة أن الجميع يعلمون أنهم يمارسون الهراء على بعضهم البعض، بدليل تلك العبارة المتداولة بينهم بشدة على سبيل التسطيح واللاجدوى من حديث أحدهم "كله هري ف هري".

غالبًا تُقال هذه الكلمة على أحاديث غيرنا في ظهورهم. إنه النفاق ياسادة يتربع عرش المجتمع، لماذا تعطي أذنك لمن يهري إذًا أيها المنافق؟

لماذا لا تملك الجرأة لتخبر من يهري أن كلامه هراء، وأنك لا تصدقه، أخبره بذلك في وجهه، وأضعف الإيمان أن تسد عنه أذنك أو تغرب عنه بعيدًا. إنهم يُمعنون في النفاق حد الاحتراف فيه. انظروا من القادم.

بالصدفة البحتة تعثّرت ميريهان في طريقها بريهام. ريهام هي الفتاة التي دفعت لسيدي المال، وطلبت النيل من ميريهان بأخذ حبيبها... بسحرٍ أسود ،أمتطي أنا جواده.

ريهام بتصنع تحاول مواراته: ميري! ياللصدف!

ميريهان بتعجب: ريهام! ما هذه الصدفة فعلاً!

ريهام بخبث تحاول اتهام ميريهان: كنتِ ترغبين في تجاهلي يالئيمة؟

ميريهان بعفوية: لم أركِ فعلاً؛ فقد كنت شاردة. جميلٌ أنكِ انتبهتي ونبهتيني. تركتكِ في القاهرة، أن تتواجدي في الإسكندرية أمرٌ غير متوقع.

- أنا هنا في عطلة. أستمتع بوقتي في مصيف.

- جميل جدًّا. أتمنى لك المزيد من الأوقات الممتعة.

ريهام محاولة استدراج ميريهان: ما أخبارك بعد التخرج؟

- لا جديد. تمت خطبتي!

- لـ؟

وفتحت فمها بتفاجئٍ مزيّفٍ.

- نعم هو بعينه.

- يامجرمة! ولم تخبري أحدًا! لن نحسدك!

- لم يكن هناك أحد من القدامى من الزملاء أو الأصدقاء حولي لأخبره. جميعهم غابوا.

- كلهن بعد الخطبة يجبن نفس الإجابة. أنا فرحت كثيرًا بهذا الخبر، و...

قاطعتها ميريهان: صدقيني لم أخفِ خبر خطبتي عن أحد. وأنتِ تعلمين أنني لست من النوع الذي يخشى الحسد أو ما شابه من الخزعبلات.

اطمأنت ريهام أن ميريهان بالغة السذاجة حد إنكارها لشيء كل الناس تقرّ بوجوده، وظلت تحافظ على ابتسامتها النافقة المنافقة.

- سأحاول محادثتك قريبًا لتتبع أخبارك. رقمك رجاءً؟

أعطتها ميريهان رقم هاتفها الجوال، وقبّلتها عن يسارها ويمينها، وأكملت السير على الرصيف تاركةً ريهام تجزّ على أسنانها، تحترق غيظًا، تشتعل كالجمرة التي انكشف عنها رماد النفاق، كل ما واساها هي عين الحزن التي كانت أكبر من عين ميريهان، والتي كانت هالتها واضحة جدًّا، واطمأنت أنها غارقة في الحياة دون مبالاة بشيء ناكرة للحسد و متجاهلةً أنه ذكر في القرآن، حتى تلك البهجة التي في أعين الفتيات المخطوبات لمن يحببن لم ترها في عين ميريهان، تأكدت ريهام أن السحر يعمل لكن مفعوله بطيء وضعيف، ضعيفٌ جدًّا حد أنه لم يقوَ على منع خطبة كهذه.

كنت أعلم أن سيدي سيهاتفني الليلة؛ لأنها بالتأكيد ستخبره أنها لم تلمس أيَّ نتائج إيجابية، وأقصى ما حصدته هو شجن يسكن في عيني ميريهان، وهذا بالطبع لا يكفي؛ فالمهمة محددة منذ البداية، والابتسامة العريضة التي واجهت ريهام بها ميريهان، كانت تستر الكثير من الكراهية لها حد الإيذاء.

يالَلسعات نون النسوة لبعضهن... مؤذية. قاتلة. ساحقة. تفوحُ منها رائحة الجفاء.

لكني رؤوف بها، سعيدٌ أنني أنا من تولى أمر الإيقاع بها وليس غيري؛ لأنني أبدًا ما كنت سأؤذيها بدنيًّا أو روحيًّا، أنا أحفظها مني، أحميها داخلي من شرورٍ أعظم. ولأنها تعلمت مؤخراً ثقافة الترشيح، وتنقية أجوائها من هرائات المجتمع، أصبحت تصد الحديث الكذب بعبوس، ربما هذا ما فعلته عندما واجهت ريهام صدفة، قد تكون استشعرت منها الكذب والنفاق فعلاً، أو شعرت بشرٍّ مضمر لا تعرف ماهيته، ربما هي حاسة الفنانين الثامنة، لا مجال أن يخترق أذنها لسانٌ عابر، و أكثر ما أعجبني في منهجها، هذه التقطيبة التي تمثل ثورة في حد ذاتها، فلا تبتسم إلا في حضرة شيء يستحق الابتسام. ابتسامتها عزيزة، ربما هذا هو

سبب ابتساماتها غير المبررة عندما تجلس وحيدة إلا منها، فليس هناك من هو أجدر بابتسامتها منها.

فالتصدق بالابتسامة على مجتمع لا يمتص الأشياء الجميلة ولايردها هو عبث لا محالة. هذا ليس جمودًا منها، بل هو مرونة لتقبل الوضع وتمريره دون خسارات تمس الروح.

وأرضُ اللقاء معها كانت الأحلام، ففي منامها حضرت لها متمثلاً في صورة صوت؛ لأترك لها أحد رسائلي كالعادة، ودار بيننا جدال قصير، كنت أنا الخاسر فيه؛ لعدم قدرتي على استكمال المواجهة، ناديتها:

- ميريهان!

- نعم، بماذا ستخبرني هذه المرة؟ أراك تأتيني بعد كل كابوس لتنقذني منه، ولا أعلم من أنت؟ ألن تخبرني؟

كانت لا تعلم أني من يصنع الكوابيس، وأني بذاتي من أنقذها منها.

أجبت بصوت تتخلله ابتسامة لا تراها:

- يمكنك مناداتي بالفارس الخفي، وسأناديكِ بشيطلائكية.

- اسم رائع أحببته. ولماذا أنت خفي وأنت تظهر لي جليًّا الآن؟ مجرد وصفك لنفسك بالفارس، جعلتني أتخيلك. لا أملك شيئا أكبر من خيالي!

- أمتأكدةٌ أنتِ أنكِ ترينني بوضوح؟

- لا أحب إجابة السؤال بسؤال! لكني أحب عصور الفروسية. ووصفك لنفسك بالفارس جعلني أستشعر وجود جمال ما عندك.

- وأي نوع من الجمال تحبين؟

- الجمال الذي يسكن القبح، فأزيل قشرة القبح عنه، وأعلن عنه واضعة عليه براءة اكتشافي له، أليس هذا ممتعًا أيها الفارس؟

اختفيت سريعًا من حلمها، مخططًا أن أعود في منامٍ آخر، تكون قد استوعبت فيه أني دائم الحضور، تعتاد عليّ... تنتظرني... حتى ولو في حلم.

ظلت تتلفت حولها؛ لتتمكن من تكوين صورة ما عني، لكني لم أجرؤ على مواجهتها بصورتي الحقيقية، فمهما كانت درجة تقبلها للقبح لم تكن لتتقبلني أبدًا.

ربما علّمها الدين أن الابتسامة صدقة، لكن علمتها أنا أن الابتسامة في وجه القبح عبث. فأفحمتني بما لم يكن في حسباني بأنها تقع في حب أشياء قبيحة أحيانًا، وبأنها ترى في القبح جمالاً. هنا بدأت أشعر بالقلق عليّ منها.

وكأنها كانت تعطيني مفتاح الدخول لقلبها، وأدركتُ أن هناك فرصة كبيرة لي للوصول لها، فأنا الأقبح في العالم، ربما يميزني قبحي عندها، أو ربما يدفعها قبحي الموارى لكشف جمالٍ ما يتخلله.

سأكرر زيارتي لأحلامها خاصة في الأوقات القادمة، لن أسمح لها أن تستمر في الإستعداد للزواج برجلٍ آخر. كل بروتوكولات التهيؤ للزواج كانت صادمة بالنسبة لي، سأحاول جاهدًا تعطيل كل خطوة. سيدي إن علم أنها في طريقها للزواج ممن ترغبه، لن يغفر لي، وسيقيم عليّ حدّ النبذ.

إنها الآن تستعد لزواجٍ لن يتم.

أكثر ما جعلني أُصِرُّ عليها، هي نظرياتها. لها نظرية شديدة الغرابة عن السطحيين، إنها تسمي هؤلاء بالمُعلَّبين النمطيين، وتتربص دائماً الفرصة المناسبة؛ لتخرج عليهم متمردة في ثوبها الجديد.

صاحت ذات يوم أثناء الإعداد لمنزل الزوجية أنها لن تقتني النيش؛ لأنها لن تسمح لأحد أن يطلع على مقتنياتها صباح زفافها، هي حياتها وحدها ومنزلها وحدها الذي لن يشاركها فيه أحد، كانت تشفق على كل عروس اكتسح صديقاتها ومعارفها منزل زوجيتها؛ ليهتكوا ستر الأشياء المحملة برائحة العذرية، يطفئون بريقها بأعينهم، إنهم نهمون لكل شيء مادي، يريدون إشباع أعينهم من الماديات،

أشكال الأواني، أطقم الكاسات الكريستاليّة، التحف المرصعّة، والمفارش، حتى أحيانا خزانة الملابس لا تنجو من تلصصهم عليها، لا يملّون النظر حولهم؛ ليجلسوا فيما بعد في جلساتهم يحكون عن كل الأشياء التي امتلأت بها أعينهم رغم خوائها، وكأنهم امتلكوها يومًا، لا تنجو الأشياء من ذمهم، فإن فاقت قدراتهم، حسدوا أصحابها، وإن قلت عن قدارتهم بخسوا قدر أصحابها، تظل أعينهم تصولُ وتجول مشبعين رغبتهم في امتلاك كل شيء حتى لو بامتلاك النظر إليه، وأقل ما يمكنهم فعله هو المقارنة، لايفتئون المقارنات بين ممتلكاتهم وممتلكات الآخرين.

لذا فقد قررتْ ألا تكون ممتلكاتها أرضًا خصبة ترتع فيها أنظارهم، تالفة بمقارناتهم الصامتة كل ذكرى صاحبت شراء هذه الممتلكات. إنهم يلفقون للفرحة سوء نوايا مقارناتهم، مدعين أنهم يرغبون في مشاركة العروس فرحتها، أي نوع من الفرحة هذا الذي يصاحبه اتلاف أجمل اللحظات بمزيج بشع من المقارنات؟

هي لا تنتمي لتلك الطبقة الأرستقراطية المنطوية، ولا تلك الطبقة الشعبية المنفرطة، هي تنتمي لها، لنبضٍ ما يحركها من الداخل، يوجهها إلى حيث التيه عن كل ما هو تقليدي وشائع، ربما وافقها من حولها على اعتراضاتها على القشور الاجتماعية هذه؛ فالنيش والنقوط والمواسم قشور وشكليات اجتماعية، لكنهم نصبوا لها المشنقة عندما بدأت تعترض على مسلمات اجتماعية، هم شخصيًّا يعتنقونها. إنهم لن يرضوا عنها إلا إذا أسلمت بكل ما اعتنقوه اجتماعيًّا، هذه هي الحياة صراع. تصل إلى تلك النظريات غير المعلنة غالبًا في لحظات الشرود الكثيرة التي تنتهجها.

عندما كنتُ ألاحظ ثبات عينيها على شيء ما دون أن يرمش لها رمش، أدرك أنها شردت، وأنها ستخرج من هذا الشرود حتمًا بنظرية ما، ترسمها أو تفعّلها في حياتها.

نهضت واعتلت سريرها واقفة، وقطعتْ مجموعة أوراق من التقويم، ثم قطعت مجموعةً أخرى، يبدو أنها أمضت الأيام السابقة دون أن تعلم هوية تلك الأيام بالرغم من أنها احتوت على أحداث، لكنها لم تستشعرها، ولم تعايشها بالشكل الذي يبهجها، فاتتها تلك الأيام دون وعي منها بها، بدت وكأنها متشابهة، تنهدت، وهي تقول: البشر أيامٌ، والأيام بشر. ثم جلست، وأمسكت اللابتوب، وكتبت على حسابها الفيسبوكي:

يمضيّ الوقتُ أحيانًا دون أن تضيف ساعاته وثوانيه أي جديدٍ في حياتك، تشعر أنك تتكرر، وكلُّ الأماكن من حولك تتكرر في نفس الساعات ونفس الثواني، تشعر أنك تعيشُ في وكر (بني ملل)، فتطاردك الأوهام المتربصة بك، وتوهمك بأن الغد قاسٍ، وتقنعك بأن هناك مجهولاً سيبتلع أحلامك المؤجلة، التي ولدت من أرحام أحلام الحاضر، تلك الأحلام التي طعنها الملل، ومثَّل بجثثها الوقت. إذا شعرت بهذه الأعراض الخطيرة، فاعلم أن عفن التسطح الاجتماعي قد أصابك. وأنا أحارب بأقصى ما أملك من قوة حتى لا يصيبني، لا أريد من يخبرني أن أمارس السطحية بنفث سيجارة، أو من تخبرني بوضع كمية إضافية من الميك أب؛ لأكون بحال أفضل، هذا هو التسطح بعينه، فاركلوه وأفيقوا!

كانت تعليقاتهم أكثر فتكًا بها من سطحيتهم. التعليقات كانت ساخرة. السطحيون يسخرون بقول: "ألف سلامة عليكِ"، وكأنها جُنّت. ياللحمق!

هذا التعليق لم يكن من شخص غريبٍ عنها. الصادم أنه كان منه. كان من حبيبها الذي لطالما انتظرته، والذي تتأهب بعد أيام للزواج به، إنه يقول لها: "ألف سلامة عليكِ" هازئًا بما كتبت... ككثيرين... كالعادة يمزح بسخرية. المزاح

الذي لم تعد تستطيع أن تعرف منه هل هو جاد أم لا، المزاح الذي يمارسه معها طوال الوقت، حتى عندما تسأله عن شيء بجدية. هذه هي طبيعة جمال الشاب الأسمر الذي أحبته، وخطبت له، وعاشت معه أجمل مرحلة من عمرها، المرحلة الجامعية. لم يتغير، هو بهذه الطباع منذ عرفته، مزيج من البهجة والعملية والطيبة والعفوية، لكن هي من تغيّرت أو بدأت تتغير، لكنها لم تكن تعي ذلك؛ فقد كنت أغيّرها في الأحلام، أرسمني لها في أحلامها فارسًا لا نظير له في واقعها، الذي بدأت تشعر بعظم قباحته بعد أن تسللت إليه أفكار النمطيين.

وقتها استنتجتُ أن اليوم يتجسد لها أحيانًا في صورة أحدٍ تعرفه جمدّت أثره ذكرى ما، كان للأيام طعم ونكهات مختلفة باختلاف نكهات البشر، لكن الآن الأمر مختلف، باتت كل الأيام لونًا واحدًا، لا نكهات ولا ألوان، يمر الأسبوع كله أحيانًا كيومٍ واحد، هذا لا تفسير له إلا أن كل البشر حولها صبغوا بلونٍ واحد، تعلبوا جميعًا في علبة وقالب واحد، وختم عليهم المجتمع ختم التسطح الذي جعلهم بلا عمق يميزهم، ربما هذا الوقت هو المناسب لأضع لها فيه أولى الخطوات التي تأخذها نحوي، ربما سيساعدها القرب مني على تحقق أحلامها المؤجلة التي لم أكن أعرف عنها شيئًا، سأمنحها أمورًا جديدة تحملها أيام جديدة، علي أن أجعلها تفهم وتقتنع أني سبيلها الوحيد للتغيير. عليها أن تحيط نفسها بي؛ لتنجو من نمطية من يحيطون بها، أنا الجنون الذي دعوا لها الله أن تشفى منه، عليها أن تفخر بهذا. لعلهم لا يفهمون أنهم يجب عليهم أن يدعوا الله أن يشفيهم من التسطح، لعلهم نسوا أن في عصورٍ ماضية من نعتهم الناس بالمجانين هم ذاتهم من غيروا العالم، عليها أن تواجههم بأن جنونها الذي يرونها به، يميزها عنهم، فعندما تصادف أحدهم متورطا بخيبة ما، ولا خيبة أثقل من الإصابة بالتسطح، تسأله: من فعل بك هذا؟ ولماذا تتركه يفعل؟

الأغبياء فقط هم من يتركون للآخرين فرصة أن يختاروا لهم، ويأخذوا عنهم قراراتهم في أشد الأوقات مصيرية، مستندين على جدار النمطية والمجتمع والقيل والقال.

وصولهم لهذه المرحلة هو عصارة ما فعله بهم من حولهم أحيانًا؛ فالوقت رجل متسرع يرغب في إنهاء كل شيء رغبةً في الوصول للسكون. لكن لا مكان لهذا السكون وذاك الهدوء إلا بانتهاء الحركة والنبض، هذا الوقت لا يفهم أنه عندما يسرع، فإنه يقربهم للنهاية، وهم بدورهم لا يفهمون ذلك لو فهموا لسألوا أنفسهم: لم التسرع إذًا؟ لننتهي؟

المجتمع يدفعنا للتسرع، يدفعنا للنهاية دائمًا بسرعةٍ، لماذا لا يدعنا نستمتع بحياتنا ببطء؟

لماذا يجب علينا حساب الوقت والإسراع في كل شيء؟

كم أعشقها حين تشاغب الوقت ببطء تتعمده.

كانت تنظر إلى الوقت كأنه شخص يطاردها بسي:، لأن الحكمة الشهيرة التي تقول "الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك" لا تعني لها أنها يجب أن تسر ، بل كانت تعني لها أن تحاربه بالبطء، وتقهره باللامبالاة به. هكذا يغتاظ الوقت، عندما تدفن له صغيره المتمثل في التسرع في مقبرة المماطلة، مخرجة لسانها له، قائلة: الحياة لاتزال كبيرةً وواسعةً، والزمن طويلاً، وأنا براحتي. أصبحت تتحرك ببطء، تعبر عن نعاسها فتتثاءب ببطء، تسير ببطء. ما أعنف الجاذبية التي تسببها نظرات أعينها الواسعة البطيئة، التي تتفتح ببطء وتغلق ببطء، وما أرقى الخطوات الموزونة ببطء على الأرصفة كخطواتها، تنتهج البطء حد أن يصاب من يراها بعدوى البطء، فقد كان كل حلمي أن أقبّل باطن كفها ببطءٍ كبطئها، أتدري ماذا تفعل قُبلة كهذه في امرأة؟

إنها تقتل يارجل... تقتل ببطء. لعلي أجرؤ على الإتيان بجريمة البطء في حلمها؛ لتقع في عشقي ببطء.

كانت ميريهان أنثى البطء، سيدة الهدوء المحمل بضجة لا يسمعها أحد، لم تكن تريد أن يسمعها أحد؛ لذلك فهي تنتهج البطء، تغيظ الدنيا السريعة ببطئها، تقهر المتهورين بذلك البطء، ربما ظنوها مغيبة، لكن كل ما فعلته هو أنها أرادت أن تكون بطيئة؛ لتستمتع بالحياة أكثر، تمتص ما فيها بتشبع وتأمل روحاني أكبر، كيف يكون هذا عيبًا يامجتمع السرعة والأرقام المرتفعة؟

كانت كل حركات جسدها تبث رسالة واحدة لكل من تسقط عينه عليها، هذه الرسالة هي: "أنا براحتي، والدنيا براح".

كلمة "براحتك" التي يستخدمها أغلب رجال الشرق؛ لإظهار لامبالاتهم بإناثهم، تستخدمها هي مع الوقت، ياألله كم أخرج منها كل مرّة بمبدأ يُغيِّر كل مشاعري نحو الحياة، ربما بدأت أشعر أنها من تخلق التغيير فيّ ولست أنا، ربما جهلها بي جعلني أعتنق مسلماتها دون علم منها. وأنا الذي بت أنظر للمرآة وأتقمصها ببطء، أمارس عداوة ما مع المرآة مخاطبًا نفسي:

قل "أنا براحتي" لعدوك ببطء متعمّد... (ب ر ا ح ت ي)، وعش بسلام. هكذا تعتنق الهدوء والسلام النفسي، وكيف لمثلي البقاء هادئًا وأنا الاشتعال بذاته؟! اشتعلت عندما سمعتها تهاتف صديقة تشكو مللاً أصاب حبيبها منها، فسمعتها تنصح صديقتها بعبارة:

- قولي لحبيبك إذا أراد قُبلةً سريعةً، ببطءٍ... (ب ع ي ن ك)، ودعيه يُجنُّ.

أشعلتني وأنا المشتعل ذاتيًا ببطئها، أنا المجنون المفتون بها، أنَّى لي بالنجاة من براءتها الماجنة؟ من عفويتها المتصنعة؟ من سذاجتها اللئيمة، ومن كيدها الطيب؟ ربما يدرك المجرم أن براءة فريسته قد تكون أحيانًا سببًا في إنقاذها،

هذا الضعف الساذج الممزوج بجرعات كبيرة من الأنوثة، يجعلني أجن فوق جنوني.

كل ما يجول بخاطرها أعلمه، تشي لي به لوحاتها، عيناها، أحلامها التي أزورها فيها والتي لا أزورها، خواطرها المكتوبة، حتى ملابسها أعلم على أي أساس تختارها، كانت تكره الأرقام؛ لأنها السبب في تقدم العالم بسرعة، ربما لولاها لظل إيقاع العالم بطيئًا، ولطال عمر البشرية أكثر. ربما لو حدث هذا، لبقينا في عصور الفرسا ، الذي أخبرتها أني أتيت أحلامها هاربًا إليها من تلك العصور، وهل يهرب الفرسان من عصورهم إلا لملاحقة أميرة؟

كانت هي أميرتي، وكان عليّ أن أجعلها تشعر بهذا، حتى لو في الأحلام بعيدًا عن الواقع النمطي. كنت كلما اشتقتها، أركض لكتابها المزركش، وأقرأ، أنتشي، ثم أمتطي أحلامها. كتَبتْ عن الوقت والبطء:

"البطء سلاح، والبرود وسيلة توصل من حولك للجنون، تعامل بهما مع أي شيء يجبرك على الإسراع؛ لأن التسرع عدو يوصلك للنهاية باكرًا، ترى كيف كنت ستتعامل مع عدو أراد إنهائك سريعًا؟ أراد أن تفنى بأقصر وقت ممكن؟ فإذا تملكك التسرع، ستتحول لأهوج".

حينها تذكرتُ بعض النماذج التي مرت عليها في حياتها، خاصة بعد أن اضطرت للعمل في مكانٍ لم تخطط أبدًا أن تتواجد فيه... مدرسة نائية... في قرية قريبة من مدينتها التي رمتها الأقدار المجتمعية فيها، وقت كانت عاجزة عن صدها، ملغمّة بالنمطيين والذين يستجدون من الحياة الوعود بأيام أكثر راحة، ينهون كل شيء بسرعة، مدرساتٌ بدينات، يتوشحن الخمار، إنهن البيروقراطية في صورة قبيحة، ومدرسون تنبعث من رائحة عرقهم أكواب الحلبة التي يترشفونها وقت الفسحة، فهذا الرجل الأهوج المتسرع الذي لا تخلو أي مؤسسة عمل منه، غالبًا يكون حاد اللسان، مندفعًا، ذا صوتٍ عالٍ، سريع الكلام،

موجودًا في كل مشاهد الحياة، تصور لها في صورة مدرس ريفي في أحد، كان يظن أنه سينهي المنهج الدراسي كله في شهر، تراه يقفز على الدرج قفزًا عندما يبلّغ أن أحد الموجهين أو كبار المسئولين حضر إلى المدرسة، كان يغيظه برودها فيحاول الاحتكاك بها؛ للصراخ في وجهها بالإسراع كغيرها في تأدية عمل ما، لم تعطه الفرصة أصلاً للحديث معها، لم يكن يقدر إلا على مراقبتها مقهورًا، وعندما تسنت له أول الفرص؛ ليطلب منها الإسراع في أداء مهمة ما؛ لأن المسئول الفلاني قادم و... و...، نظرت إليه نظرةً بطيئةً، وقالت ببطء: ولماذا لم تنه العمل أنت بشكل أكثر إتقاناً وروية، أم أنه يجب عليك أن تورط الآخرين في الوقت الضائع لإنجاز العمل المؤجل والصراخ عليهم؟ وتركته، ومضت. كاد أن تصبيه جلطة، فنفّس عمّا به بصرا... أخذ يصرخ ويرفع صوته. استدارت ببطء، وقالت: متزعقليش! أنا براحتي! هكذا تسبب الجنون للتسرع، وهكذا تواجه النمطيين الذين يريدون إفناء حياتهم بسرعة، وكأنها تقول لهم: أفنوها بعيداً عنا لو سمحتم.

كانت تجد صعوبة كبيرة في فهم من يتحدثون بسرعة، أحيانًا لا يفكرون فيما سيقولون؛ فلسانهم يسبق عقلهم في أغلب الأحاديث، لا ترتيب للأفكار، بل عشوائية كبيرة تبعثر الأسرار أحيانًا، لكنها لا تنتهج العشوائية في التفكير مثلما تنتهجها مع المحيط الخارجي والأشياء، فعندما تغمر العشوائية الفكر، تقع الأخطاء بسهولة، وتتسلل ذلات اللسان خلال تلك الانطلاقة الجامحة. فالغرباء غالبًا ما يحاولون التلصص على حياتك، واستنتاج ما تستر منها من خلال ذلات لسانك هذه. التسرع يجعلك تخطئ لا محالة.

الحياة تمجد هؤلاء الذين يبالون بأصغر تفاصيلها، ويجعلونها كبيرة، ويسرعون لإنهاء كل شيء، تجود عليهم بالكثير وتعطيهم ولا تبخل أحيانًا، تعطيهم بسرعة، فيأخذوا منها بسرعة، ليموتوا بسرعة. لذلك كانت تخاف عندما تعطيها الحياة شيئًا بسرعة، تجن عندما تتخيل أنه قد يضيع بسرعة. لذلك فعلى عكس

بنات جيلها انتظرت حبيبها دون إلحاح، حتى اكتمل قمر قدرته على إقامة أسرة، عاشت تخطط معه لحياتهما القادمة سنوات وسنوات، وعشتُ أخطط كيف أدمّر تلك المخططات، وأعرقل مسيرة هذا الحب.

****

.أتمزح؟ أرسلتك في مهمّة تستطيع إنهاءها في طرفة عين، ولاتزال تعبث؟

- سيدي، المهمة أصعب مما كنت تتوقع!

- لا تجبرني على إعفائك منها، وإرسال غيرك للقيام بها.

- لا أرجوك. لا أحد يستطيع القيام بها غيري. لكني لا أريد إيذاء أحد، فأخطط لفعل ذلك بسلام. وخططي تأخذ وقتًا، المعجزات ياسيدي أيضًا تحتاج لوقت؛ كي تتحقق.

- ومنذ متى وأنت مسالم؟ أنت أكثر شرًّا وعهرًا. لن تنطلي عليّ حججك الواهيةَ!

- صدقني، وأعلم أنك لن تصدقني، أنا أبذل ما بوسعي.

- لا يهمني أن تخرج إلا بالنتائج التي اتفقنا عليها وفي أسرع وقت ممكن. لا يهمني أن يكون هناك أذى لأحد أو لا. أفهمتَ؟

- فهمت.

أدركتُ أن عليّ تغيير خطتي، أو جزء من خطتي، ربما عليّ أن أبذل جهدًا من ناحية جمال أيضًا؛ لتتم عملية التفرقة بشكلٍ أسرع.

كم أحسد جمال هذا عليها!

على عكس بنات جيلها من النمطيات السطحيات، فهي لم تهدده أن هناك عريسًا جاهزًا ليُسرع؛ لأنها تعلم أن الإسراع قد ينهيه. لم تشترط عليه أن تكون شقة الزوجية ملكًا له، لم تكبله وتلح عليه بالإسراع، تركته حرًّا إلا من عشقها؛ لأنها تحررت من تلك الهرطقات الاجتماعية السمجة التي تشعر أحيانًا أن وظيفتها هي تكبيل الحب حتى يصل للنفور، لهذا انتظرت حتى تشبع بها، وتشبعت به لتأخذه على جرعات ببطء؛ ليطيب لهما الهناء ببعضهما على نحو بطيء في المستقبل؛ لأن من يتسرعون يظنون أن هناك أمورًا أخرى تنتظر أن تعاش في الحياة. لكنهم يفاجئون أن النهاية تكون قد حلت وانتهى الأمر. وعند حد معين ينتهي الأمر إلى ما لا بداية.

ربما كان عليها أن تكون بطيئة وتطول مدة انتظارها له، حتى يتسنى لي الحصول عليها، لم يكن يشغلني أن تنكسر، أو أن تخيب آمالها، أو أن تشمت بها تقاليد المجتمع وقصص أمها؛ فقد أعماني عشقها. لذا كان عليّ أن أسلّط عليها إناث التسرع؛ ليفسدن كل مخططاتها، ما أكثرهن في هذا المجتمع، سأستغل انتماءها الشديد المتعصب لتاء التأنيث؛ لتؤثر عليها الإناث، إناث التسرع، وفي نفس المدرسة النائية: ها هي المدرِّسة ذات الخمسة والأربعين عاماً تحاول جرّ أطراف الحديث معها، وها هو السؤال المعتاد تستعد لإلقائه:

- امتى هنفرح بيكِ ياميريهان بقى؟ فرحك اتحدد ولا لسه؟

فاجئتني بردها عليها بابتسامة واثقة:

مش مستعجلة! أصل براحتي!

تلك المرأة التي يشكو منها معظم العازبات، والتي تسأل كل من تقابلت معها ممن دون الخامسة والعشرين: "متى سنشرب شرباتك ياحلوة؟". هذه المرأة هي كيان مجسد لجاهلية النساء، كم يؤذي النساء بعضهن أحيانًا بجاهليتهن التي يصوّبن بنادقها في نحور بعضهن البعض عن جهل، لسعة أخرى من لسعات نون

النسوة، لكن هذه المرّة من حيزبونة أخطبوتية كبيرة وظيفتها هي التلصص في ذروة أوقات العمل على خبايا حياة الأخريات.

إن التسرع في صورة أنثى هو أشد الأسلحة المجتمعية فتكا بالنساء؛ فتلك التي تتعجل الزواج، فتتزوج بسرعة حتى لا تنعتها أخريات بأنها عانس، وتتعجل الإنجاب فتحاول أن تنجب بعد الشهر الأول من الزواج حتى لا تسمع من الأخريات الكلمة التي تتكرر على من بلغ عمر زواجهن شهرًا: " فيه حاجه في السكّة؟"، فتتعجل وتتعجل خشية كلام الأخريات. لماذا نصبن الفخاخ المجتمعية لبعضهن؟ ربما صدق من قال: إن الرجال لا يبالون ببعضهم البعض، بينما النساء خلقن أعداءً لبعضهن البعض. لكنها كانت وفية لجنسها، تدافع عن نون النسوة حد التطرف، بالرغم من لسعات حواء الاجتماعية التي لم تنجُ منها.

لكنها تعرف كيف تتعامل معها أحيانًا، وأحيانًا أخرى تعجز. لكن هذه المرة تعاملت مع سؤال المدّرسة بحكمة البطء. لم تفحم تلك المرأة فحسب، بل أفحمتني أنا أيضًا. كنت أظن أن ما أمارسه عليها من ضغوطات سيؤثر عليها فتركض وتتعجل خطيبها، فيصاب بالضجر فتحدث بينهما مشكلة ما. لم أرَ طوال ألف عام من حياتي حبيبين لم تحدث بينهما أي نزاعات أو سوء تفاهم، كنت أتعجب لأمرهما، لكني مدركٌ أن مياهما الراكدة ستتلوث وتتحول لمستنقعِ فتورٍ كبيرٍ يومًا ما. لكن لا أنكر أن رد فعلها كان مؤشرًا مزعجًا لي، إن توافقهما لهذا الحد لهو توثيق لفشلي الذريع. لكني لن أستسلم. وسأنفذ الخطة الثانية مع ذلك النمطيّ الذي تحبه.

لم أعد أحمل في سلّتي لها إلا المزيد والمزيد من الجنون، والمزيد من اللحظات المُشتهاة،

أعدكِ أني لن أؤنب نفسي أبدًا عندما أغرس نابيّ في شفتيكِ الغضّتين.

****

السابعة والنصف مساءً بتوقيت الإسكندرية، في طقسٍ يصلح لاصطياد اللحظات البائسة لشاب نصف حياته تنقضي في العمل. ها هو جمال يحاول في دقائق الفراغ امتاع نفسه بفنجان قهوةٍ تركية، أذاب فيها أحلامه المؤجلة، إن كانت له أحلام حالمة، فأحلامه غالبًا ماديّة، لكنه طيب. انظروا كم هو طيب... وديع... ومسالم... أعتقد أني عرفتُ الآن كيف يمكنني استغلال هذه الوداعة التي يتمادى فيها لصالحي.

همست في أذنه أن يحادث الآن خطيبته هاتفيًّا، فاستجاب. ظن أن همسي هو همس الذات، وأنها رغبته، فهو لا يفرّق بين رغباته الذاتية والهمس الخارجي.

أمسك هاتفه، واتصل بها في وقتٍ كانت تغتسلُ فيه، الهاتف يرّن ولا إجابة، همستُ له أنها بالطبع تتجاهله، هذه ليست المرّة الأولى فكل أوقات الاتصال لا ترد مباشرةً، أو على أقل تقدير تتأخر في الرد. بعد ساعة حاول مرةً أخرى، فردت. همستُ له أنه ينبغي أن يكون هادئًا، فليس بعد كل هذا التجاهل ينبغي أن تُظهر لها مبالاتك الشديدة. كن لامباليًا؛ لتشعر أنك لا تهتم كما أظهرت هي عدم اهتمامها.

بهدوء قال: أين أنتِ؟ اتصلتُ أكثر من مرّة، ولم تكن الأولى!

همستُ لها أنها لا يجب أن تواجه هدوءه بالكثير من التفاصيل عن غيابها؛ لأنه لا يهتم بالتفاصيل أصلاً، ويجد صعوبة في الاستماع ويعتبر من يتحدثون كثيرًا ثرثارين، وأنها لا ينبغي أن تكون مثلهم؛ لتحافظ على أساسيات التوافق بينهما، فأجابت:

- لم أكن بجوار هاتفي.

وضعتُ في أذنه سلةً من الاستنكارات، وذكرته بمراتٍ سابقة قامت فيها بنفس الفعل، حتى يجبرها على عدم فعل ذلك مرة أخرى بتلميحٍ قاسٍ، فليس من باب

الاهتمام أن تترك هاتفها هكذا. هذا يعني أنها لا تهتم لأي اتصال متوقع منك. فقال لها بعد هذا الهمس في أذنه:

- أنتِ تكرهين الهواتف النقالة ولا تتحملين التصاقها بكِ. إنها تسبب لكِ حساسية!

نفثتُ في قلبها أنه يتغيّر. فسألته: ماذا بك؟

إنها الآن تحاول مراوغتك لتتهمك بالتغيير. فرد: هذه ليست المرة الأولى! أنتِ كل مرة تتجاهلين الهاتف!

ياإلهي إنه يتهمّك بأنكِ تتجاهلينه! كم هو قاسٍ. فقالت له: لا تقسُ عليّ! هل سنمضي وقت المكالمة كله في تأخري عن الرد؟

إنها تحاول إلغاء الكلام في هذا الموضوع؛ لأنها تعلم أنها أخطأت. لذا قم بإظهار أنك كنت تحضر لها خبرًا مفرحًا، وكان سيفوتها الكثير عندما تأخرت في الرد. ندّمها في كل دقيقة تأخرت فيها عن الرّد. فقال لها:

- كنتُ أتصل؛ لأخبركِ أن النجّار أنهى العمل في الأثاث، وسوف أتسلمه يوم الخميس المقبل، وسيكون من الممكن أن نضعه في الشقة بعد يوم الخميس.

إنه طيب، لكنه أفسد هذا الخبر السعيد ببداية عتابه في المكالمة. لماذا لم يخبركِ الخبر أولاً، كان ذلك كفيلاً بإنهاء أي جدلٍ لا طائل منه غير التنغيص؟!

فقالت له: ليتك أبديت هذا الخبر قبل أن توبخني بلباقة على تأخري في الرد.

إن خبرًا سعيدًا مثل هذا لم يؤثر فيها. لايزال كل همّها نفي التقصير عن نفسها، وتلفيقه لها في ضعف يستجديها، لا يجب إطلاقًا أن ترضخ لضعفها؛ لأنه يسكنه قوة.

ستتهمك في النهاية بتقصيرك. فرد عليها:

إذا لم أتصل لإخبارك، كنتِ ستقولين إني الصامت المنغلق الذي لا أخبرك بشيء. ألم يحدث هذا منكِ مسبقًا؟

إنه لايزال ينبشُ في المواقف القديمة؛ ليدعم به موقفه الحديث هذا... إنه لا ينسى... لا ينسى العتابات ولا المواقف التي تمررينها له... لا يقدّر قيمة أنكِ لم تقعي معه في خلاف لسنوات. لا يستوعب فكرة أن يدوم السلام. هذه المرة الأولى التي يظهر فيها أنيابه بهذه القسوة. لكن إن أنهى الحديث ببعض من الرومانسية، فلا مانع أن تمرري الأمر. لكن إن لم يفعل، وغالبًا لن يفعل، فلا تمرري قسوته هذه، وعاتبيه عليها دائمًا كما يفعل، وذكريه بها كل جدال.

ردت بصوتٍ مشحونٍ بالتعب واليأس من متابعة هذا الجدل الدائري:

- سأخبر أهلي بأن الأثاث جاهز، وسأخبرك بموعد حضورنا لرؤيته قريبًا.

إنها تحاول إنهاء المحادثة؛ لتربحها. أَنهِ أنت المحادثة. أنتِ صاحب الموقف الأقوى. فرد:

حسنًا! سأنتظر أن تتصلي أنتِ وتخبريني. في وقت تكونين راضية فيه عن هاتفك النقّال، فأنا متاحٌ دائمًا. لا أملك جداول أعمال مكتظة مثلكِ. سلام.

إنه يعيد جلدك بسوطٍ بَلِيَ من كثرة استخدامه. أتعلمين؟ لقد أضاعت هذه الجملة تأثير كل اللحظات التي ستتزوجينه لأجلها، أضاع آثار القُبلات واللهفة. إنه شديد القسوة وهذا داءٌ لن يغيّره بعد الزواج، تذكري ذلك فقط. تقبّليه إذًا ومرري هذه المكالمة. أو لا تتقبليه وأخبريه أنكِ ترغبين في تأجيل العرس. فردت عليه قائلةً:

حسنًا! سأفعل! سلام.

اختارت أن تمرر المكالمة؛ فتواريخ الحب تُثقل الميزان الذي لا يمكن أن يختل بمكالمة.

كم كنتُ سخيفًا أمام قرارها الأخير هذا. انتابتني رغبة كبيرة في مناطحةِ كل ماضيها الآن وتقليب المواجع عليها. لابد أن أخرج هذه الليلة بفائدة. لا يمكن أن تذهب سدى.

نفثتُ في روحها بعضًا من الحقائق... في كبسولاتِ الأحلام. بعيدًا عن صورة الفارس الخفي التي كنت قد عودتها عليها، كنت لها في صورةٍ أخرى، كنت لها في صورة كهل يشبه جدّها الذي تنتمي إليه طفولتها، كان عليّ أن أتشبث بذكرياتها البريئة لإقناعها برؤيتي:

لماذا أحببتِ رجلًا كهذا ياميريهان؟! إنه لا يشبهك ولن يشبهك! إنه يرد عليكِ بطريقة غير تلك التي تعودتِ عليها منه. إن به جانبًا لا تعرفينه. لاتزال هناك قشورٌ حوله لم تمكنكِ من رؤيته بشكل جيّد، لم تستطيعا في وقتٍ من الأوقات مشاركة بعضكما فيلمًا ما أو أن يطرب لسماع أغنية تحبينها، ولن تعجبك أفلام الحركة التي يحبها، لن يطرب لسماع أغنية (قل فيّ شِعرًا) التي تحبينها. هل ياترى تصلكِ رسائلي هذه؟

- من أنت؟

- أنا رسولٌ من المستقبل. جدّك الذي كان يتنبأ لكِ بمستقبلٍ باذخ بنجاح أكثر من بقية أحفاده.

- الزم صمتك إذًا كما لزمته طوال السنين الماضية. الأمر الآن تعدى كل تلك التنبؤات غير الصحيحة التي تخبرني بها. لم أنجح حتى الآن في شيء، ولا حيلة لي إلا بسير الطريق التي أشعر آخرها أني لم أمارس الانتظار سدى.

- مُخطئة. ستشعرين آخرها أنكِ أهدرتِ عمركِ؛ لأجل غسل الأطباقِ كل يوم، في بيت رجلٍ يقتل العمل ساعاته، سيكون أكبر أحلامك هو أن يأتي عليكِ يوم لا تغسلين فيه الأواني، ولا تنسي أن تنامي قبل أن تُخرجي دجاجة من المبرّد،

وكل تلك المهام النمطية ستدفنك، ستتحولين لامرأةٍ ببطنٍ بارزٍ. اخضعي للمجتمع وتزوجي وتحولي لامرأة تتلاشى إذًا.

- أهناك سبيل آخر للحب غير الزواج؟ لا يمكنني أن أكون بلا زوج في هذا المجتمع.

- أنتِ لا تحبينه! أنتِ واهمة، ويمكنك الحياة بدون زواج. لكن لا يمكنكِ الحياة بدونِ حُبٍّ، أنا أعرفكِ أكثر منكِ.

- بل أحبه. صدقني أحبه.

- لكنك ستتغيرين وسيتغير. الزواج يغير للأسوأ.

- لا. لن يحدث. سأحاول إعادته لي كلما تغيّر؛ لأني أحبه.

- إذًا لكِ العذاب من قبل ومن بعد.

ثم اختفى، واستيقظت وقلبها يخفق بشدة، ويغمرها بحرٌ من عرق.

كل ما كان يتردد لعقلها بعد هذا الحلم هو لا أريد أن أسقط في هاوية النمطيّة. الزواج يدفعني لها. كيف يمكنني الحصول على زواجٍ غير نمطي والمستقبل يتوعد للحب بالانهيار؟!

أمسكت القلم وكتبت في كتابها المزركش :

على الآخر أن يعي بأني لا أمر بأزمة نفسيّة عابرة

أنا تيه الماضي الممتد للمستقبل...

أنا كلمةٌ زرقاء باردة... متجمّدة لن تنصهر إلا بجنون

أنا جائعة لجنونٍ يغيّر تلك النهايات المستقبلية.

****

الآن أشعر أني حركت الساكن منها نحو ما أرغب... وربما نحوي... فأنا الجنون...

***

المعلّبون في الأرض

ربما عليّ أن أهدأ وأمارس اللامبالاة بالوقت، واقتداءً بها، كل ما علي هو أن أسترخي و أدع الأمور تسير ببطء. متمنيًا ألا يصيبني الملل.

ربما وجدت تعريفًا للملل في كتابها المزركش... لحظة لأقرأ...

"الملل هو رجل سمج لا مكان يخلو منه، يعمل معك في نفس المكان، بمجرد تثاؤباته يمتص أكسجين محيطك، يقتات على ما بقي فيك من صبر، يحبطك في كل محاولة تحاول فيها البحث عن الجديد، أو التقدم خطوة للأمام كهؤلاء البشر من فصيلة بني ملل الذين ما إن سمعوا أنك تحاول خلق جديد، إلا وانهالوا على أذنك بأنك لن تستطيع، والظروف، وفيض من العوائق يسيل من أفواههم.

"هؤلاء المحبِطون يبنون السدود بينك وبين الأحلام، وإن سألتهم عن السبب وعن دوافعهم لذلك، فهو التعلّب، نحن معلبون لم نحقق شيئًا في حياتنا، فلتصطف معنا، كلنا سنكون معلبين لا أفضلية لأحد على أح ، لقد فشلنا في تحقيق أحلامنا، وأنت عليك أن تكون فاشلاً مثلنا تمامًا، وفشلك واضح. لا تهدر الوقت بالمحاولات، فشلنا؛ لأننا ضحية الظروف، وأنت أيضًا يجب أن تكون ضحية للأوضاع والظروف. وأي محاولة تحاولها، فاعلم أنها ستبوء بالفشل ،فوفّرْ الفشل على نفسك، ولا تجرب حتى لا تخسر مثلنا؛ لأنك شئت أم أبيت

ستكون من الخاسرين الفاشلين. إنهم جميعًا مكررون، كلهم كبعضهم وحدتهم السطحية."

ربما لو قابلت هؤلاء المعلبين في حياتي لمنعوها عني لأنها حلمي، فقد كانت هي حلمي، وكنت حلمها دون أن تعلم، ربما حاولوا إقناعي بأن إناث بني جنسي أولى منها بي، ربما لو طبق هذا على شخص من المعلّبين لخضع لهم، لكني أتعلم منها كيف أواجه التعلّب.

وكأي شخص يعيش ي هذا المجتمع، ووفقًا لنظرية التعلّب والمتعلبين.

سيحاولون إقناعك بأن للغد أنثى موجودة في صورة حبيبة فات قطار ارتباطي بها وعبر محطة الحب إلى محطات الفقد، ففقدت بها مستقبلك وغدك؛ لترتبط بأنثى أخرى خاوية الروح والوجدان. لكن هيهات أن أستسلم، هي وحدها أنثى غدي. هي مستقبلي، وأنا مستقبلها. والمستقبل يحمل الجديد دائمًا بها.

ربما هذه التنهيدة التي تخرج من صدري تجعلني أتابع القراءة في كتابها المزركش عن مواقفها مع المعلّبين في الأرض من البشر. سأتابع القراءة... وأتابع التنهّد...

"إن مجموعة المشاعر التي تؤدي بنا للهاوية متجسدة حولنا في صورة بشر؛ فالوجوه المتكررة المعبَّأة من اللاجديد، المستهلكة الأفعال من البشر، الذين لا يملون التكرار، هم من يضعونك أحيانًا في قبرك صغيرًا، يمتصون أيامك وجمالها بقبح أرواحهم المتشكلة من مجموعة أنماط متكررة، لا يحاولون في مرة أبدًا إقناعك بأنهم مختلفون، هم سادة التقليد على الأرض، هؤلاء إن صح ظني سيكونون السبب في انتهاء الحياة سريعًا، معدومو الابتكار، الاستهلاكيون لكل شيء مختلق أو مستحدث، دون أن يضيفوا له أي إضافات، لا متعة لهم في الحياة يستشعرونها، هم مجرد مرددين، فلا تثبت أنفسهم على قالب إلا القوالب النمطية. هؤلاء الذين تستشعرهم حولك، لكنك لا تمتلك مصطلحًا تصفهم به،

وأحيانًا مكانتهم عندك لا تجعلك تجرؤ على مواجهتهم بحقيقتهم؛ لأنك أحيانًا تُصدم بأنهم تحولوا لنمطيين لأجلك، وهذا أقسى شعور يمكن أن يواجهك؛ لأنهم ينتظرون منك أن تتحول لنمطي لترد لهم الجميل، وأحيانًا هذا الجميل يتحوّل إلى فرض إلزاميّ كلما زادت درجة قرابتهم لك، والعجيب أنهم مؤمنون أن بعض الأفعال الروتينية تجلب السعادة؛ ربما لأنهم لم يتذوقها من الجنون بعد. فالجنون عدوهم يقذفون كل من مارسه بالانحراف، والاعوجاج عن السطر المستقيم.

"موجودون حتى في العوالم الافتراضية، يملؤون صفحات الفيس بوك، ينشرون نفس المنشورات المملة التي مرت على نظرك ألف مرة، ينشرونها كأنها جديدة، وكأنها لاتزال تلمع، كل أحاديثهم تفتقر للبريق والإثارة، قد تموت وأنت جالس أمام شاشة حاسوبك تراقب الدنيا الافتراضية وعوالمها الموازية، بدون أي إرادة، تسرقك العوالم الموازية وتعطيها عمرك بكل إرادتك، وتعطيك مقابل عمرك استدارة عمودك الفقري، كما أفعل أنا الآن...

"فإذا لم أتناول هذا الدفتر، وأكتب ما جال بخاطري الآن، قد تصيبني عدوى الملل والجمود التي تنتقل إليّ من خلال منشوراتهم الفيسبوكية. عليّ أن أقوم بعمل (إلغاء متابعة) لكل نمطيّ على صفحتي.

"سأحاول البحث عمّن يشبهني في هذا العالم...

"لكن أهناك من يشبهني؟!

"سأكتب، وأكتب، وأكتب...

"ففي كتابي هذا متنفسٌ عظيم..."

نظرتْ من نافذتها التي تطل على مقهى مكتظ تنبعث منه رائحة الوشايات، وكتبتْ:

"هؤلاء الرجال القابعون على المقاهي ينفخون دخانا من المقارانات والترصد والترقب لكل شخص دخل دائرتهم: فلان كان ماذا وأصبح ماذا، وبالأمس كان يركب الفيات 128 الحمراء واليوم صار من أصحاب ال"BMW"، هؤلاء هرستهم المسلسلات المصرية في كل مشاهدها، وهم هرسوها في كل جلساتهم، فتحولوا لمسوخ من نمطيتها المملة بداية من الأب الموظف النمطي المتكرر في جميع المسلسلات ذي البدلة الزيتية حامل البطيخة، وانتهاءً بردح النساء الشعبيات في كل مسلسل يحكي حكاية حارة شعبية، مرورًا بالمقاهي الشعبية وحكايات الصعيد المتشددة المبالغ فيها، ما قابلت يومًا أحدًا من الصعيد إلا وكذب ما يروى عن الصعيد في مسلسلاتنا العجيبة. إنهم يجيدون المبالغة في كل شيء.

"جمال من أصول صعيدية... وأنا حقًّا أحبه. لكن ذاك الحلم أو الكابوس يرعبني.

"ما أجمل الرجل الصعيدي حين يعشق ويمارس العشق على شكل أفعال! وما أبشعه حين يتحكم ويَقهر ويقسو! أنا أخشى قسوتك ياجمال. أخشاها".

كان عليّ أن أدرس من يجذبها من الرجال وأتعمق في فهم أسرار هذه الجاذبية. ربما هي تملك حاسة شم قوية تكتشف بها رائحة دفء الصعيد فيهم، ربما اختارت حبيبها من أصول صعيدية؛ لأنها ترى في رجال الصعيد ما يجذبها، ربما لأنهم ينحدرون من اللون الأخضر بتلقائيته وسلامه. لاحظتُ أنها لا تستطيع أن تكبح جماح فرشاتها إذا وقف أمامها رجل صعيدي بعمة وجلباب بملامح الشمس، تخرج ما تيّسر من الفرش من حقيبتها وأقلامٍ وأوراقٍ سريعًا سريعًا، قبل أن ينقرض، وتسجل خطوطًا سريعة لذلك الصعيدي الأخضر بكل تفاصيله. كانت تنعته بالأخضر بينها وبين نفسها، ربما ظنت أن الفارس الذي تسمع صوته في الأحلام هو أخضر سيأتي لها بسلامٍ ما.. يلتف بها، تُكثر الحديث مع طيفه حين تخلو بأحلامها، وما أن تستيقظ وتجده في مكان ما، قطار أو ما شابه، تحاول أن تسكبه سريعًا على الورق؛ لتجسده فيما بعد على مهلٍ، وكأنها جائعةٌ للرجولة، تريد أن تنفرد بأكلها؛ لتشبع بها أنوثتها التي لم تعد تجد أيقونات مميزة سوى في من حافظوا على عذرية رجولتهم، جائعة لسمارِ وخشونة رجل في زمن سقط فيه البنطال فسقطت معه الهيبة، جائعة لعمق دفء رجل بأحاديث خصبة توّلد فيها الهيام، وهل يوجد مكان لأنثى أدفأ من بين ذراعي رجل قلبه أخضر؟ ربما قد شكلت في وجدانها ملامح حبيبها المستقبلي، فأهدته لها الأقدار على طبق من المصادفة واضعة إياي في تحدٍّ كبير أمام شاب من أصول الصعيد على صورة عصرية، ما أروع القدر حين يهادينا ما نرغب دون أن نتحدث، بل ويهذب لنا الهدايا بما يتماشى معنا. ولأنها تعرف قيمة الهدايا القدرية القيّمة، ظلت تحفظ العهد معه حتى أصبح لها. لكنكِ ستعلمين ياميريهان أن هدايا القدر

أحيانًا تكون مغلفة بأغلفة يصعب فتحها، هدايا القدر مرصودة بأكثر من عين. أنتِ هدية القدر لي، وهو هدية القدر لكِ. وريهام تريد أن تأخذها من بين يديك. وأنا أداة في يد ريهام. لنصفق إذًا للقدر جميعًا.

من يريد أن يغير قدره وسط النمطيين، يتهمونه بالكفر المجتمعي والإلحاد بنهج القطيع وربما يلفقون له تهمة دينية، والدين منهم بريء. ما أجملني عندما أتناقض مع أفعالي وأذكر الدين في حديثي! فمن المعلّبين في الأرض أيضًا واجهَت من يرددون كلمات الدين دون تشبع ذاتي بها في معاملاتهم أو كياناتهم، كذلك الشخص الذي وجدتها قد رجمَت الغباء أمامة بعبارة (أعوذ بالله من الغباء الرجيم)، فنعتها بالمحرّفة للقرآن، وأنها على شاكلة مسيلمة الكذاب!

ما أكثر الحافظين! وما أندر الفاهمين! وما أندر وأندر الفاهمين عن ظهر عمق! كيف كان لها أن تذكر اسمي قبل كلمة رجيم وأنا أعشقها كل هذا العشق؟! كانت تشعر بي ياقوم، أخيرًا شفعت لي علامتي القدرية عندها، وبدأت تستشعرني. كم أنا سعيد!

سأنتشلها من براثنهم بجنوني... بقوتي... بطاقاتي كلها. لن أتركها لهم. سأنقذها حتمًا؛ فأنا فارسها الخفي. أنا أتحدث عن هؤلاء السطحيين المنتشيون بشدة في أوساطنا، فلا نسلم من تسطح عقولهم أبدًا. أنا وهي اليوم نتشارك في الإلحاد بهم، أرواحهم مغلقة ومتكررة تدور في دائرة كل دقيقة ستون مرة؛ ليحتلوا جل الوقت، وجل الحيز، وجل محيطك، فيخنقونك ويسرقون أكسيجينك، ويشعرون أنك على وشك الفناء إلا منهم، هم السبب في كل خيبات العالم أساسًا، وقد تتحول إلى ميت إذا استسلمت لهذه الخيبات دون وعيٍ منك. هناك شيءٌ ما يدفعك إلى أن تتغير، وهو الابتعاد عنهم. لا أحد غيرها يهمني أمره من البشر جميعًا بالأعم، ومن النساء بالأخص، فلا توجد امرأة على هذه الأرض هوى فيها قلبي كـ(هي)؛ ربما لأن معظمهن أصبحن متكررات كهولاء النساء

اللواتي لا يستطعن فك عصبة القماش من فوق رؤسهن في المنزل، متشققات الكعبين، وغطاء العقل أخذ كل مساحة عقولهن، ولم يترك لهن مساحة واحدة مكشوفة للتفكر والتفكير، ففقدن العمق والإحساس به، وانعكست قباحتهن الخارجية على دواخلهن، فأصبحن قبيحات الشكل والمضمون يسرن في الشارع واجمات يفكرن كيف يمررن الوقت فقط. كيف ينتهين من أعمال منزلهن المتكررة فقط، لينتهي اليوم بما عليه من مهام عقيمة. على عكس النساء القديمات اللواتي اجتمعن جميعا فيها، نساء الخمسينيات الجميلات اللواتي تستغيث الطرقات كل يوم من نعومة كعوبهن، وتصرخ الأشياء إذا لمسنها بقفازاتهن الساتانية، كل شيء كان وقتها جميلاً... فما الذي حدث؟

أصبحت أحاول تقويم بعضهن بالهمس لهن: قومي ياامرأة، وضعي بلسم الشَّعر على كعب قدميك؛ لعله يطرى ويشفى من تلك التشققات التي يشعر بها رجلك ولا يتكلم، يكتمها فقط داخله ويقارن بينه وبين نفسه بينكِ وبين أقرب

امرأة ناعمة الكعبين تسقط عيناه عليها، إن من في منزله ليست أنثى، أنت لستِ له إلا مجرد خادمة توفر له المأكل والمشرب، لا تنصدمي بعدم معرفتك بأن بلسم الشَّعر يصلح للقدمين؛ لقد كنت أراها تضعه على قدميها، اختلفي ياتقليدية، لا تصدميني أن لا بلسم لديك، فلن تنالي بلسم الحياة إلا بنعومتك، استعيديها وغني، كما كنتُ أسمعها تغني وهي تتمدد في بانيو يغمرها، بيد أني لا أستطيع أن أغمرها وأنا الممتلئ بها، غذِّي روحك واطربيها بأغنية (قُلْ فِيَّ شِعْرًا) لنبيلة معن، لا تكوني امرأة مستهلكة، جددي روحك، ومن بعدها جسدك، وقويهما لا تجعلي روحك ورقية ضعيفة؛ فالأشياء المستهلكة في هذا العصر تستخدم مرة واحدة، وترمى في المهملات كالأطباق الورقية. أصلحي ذاتك المهلهلة، وأخبري رجلك "أنا هنا" جميلة ولا أملّ التجدد.

ما هذا؟! يبدو أنني تحولت إلى شيطانٍ طيب، يحاول توفيق الأزواج والعشاق لبعضهم البعض غير مكترث لما لديّ من مهام تخريبية تزج بأكبر عدد منهم إلى جهنم، وهل يوجد جهنم تحرق أكثر من جهنم العشق التي تسكنني، والتي حوّلتني فجاة إلى واعظٍ أبيض، أردت أن أعطيها سوادي فمنحتني بياضها، كيف حولتني من شيطان مخرّب إلى ملاك، بينما أنا أسعى بكل ما أملك من عشق لتحويلها إلى شيطانية لتناسبني؟!

* * *

قواعد شيطلائكية

سؤال بحاجة إلى أن أجيب عليه، وسأكتب الإجابة باستفاضة هنا في كتابي المزركش:

"الرجال عندما يتحولون إلى نمطيين تذبل أعينهم، وتبدأ بطونهم بالبروز إلى الأمام، فذلك الرجل الذي يردد كلمات الغزل التقليدية في أذن خطيبته التي خطبتها له أمه، لا يمكن أن يكون شيطلائكيًا. إنه يريد فقط أن يشعر بأنه في حالة هيام وحب، فيحاول جاهدًا إبقاء نفسه في مشهد من مشاهد المسلسلات والأفلام التي تتكرر فيها المشاهد وتتردد فيها نفس الكلمات التي تحشو الأغاني النمطية التي يغنيها مغنون لا يتجددون؛ لأنهم يعلمون أن جماهيرهم من النمطيين لا يملون التكرار، ككلمة الدكتور للزوج في أغلب المسلسلات: "مبروك المدام حامل"، فيرد الزوج قائلاً: "يااه يعني أنا هبقى أب؟". الخانق في الأمر أن الفتاة المصرية عندما تتزوج رجلاً، وتحمل، باتت تنتظر رد فعل من زوجها مطابقًا تمامًا لرد فعل أبطال هذه المسلسلات المملة. هذا المشهد متكرر حد أن لا يوجد امرأة تحمل في المسلسلات المصرية إلا ويكون هذا هو المشهد المعتاد كل مرة، هذا المشهد أصلاً هو السبب في عدم مشاهدتي للمسلسلات المصرية منذ عام 2000، حيث كنت وقتها قد تشبعت بالملل منها. كل هذا حدث قبل انتشار وظهور الشيطلائكيين. عندما ظهروا وشاهدوا نمطية تلك المواد الإعلامية اليوم، أخذو يضحكون ويتساءلون كيف سمحنا لهؤلاء أن يضحكوا على عقولنا بهراء التكرار والنمطية هذا؟ كنا نعيش في زيف العصرية وما كنا بعصريين، كانوا

يوهموننا بذلك فقط. إنها الفترة الانتقالية التي فصلتنا عن العصرية والرقي الحقيقي. إن بداية التسعينات هي الفترة العقيمة في تاريخنا، لم ننجب فيها أي نوع من الجمال، حتى طلاتنا وقتها كان يجملها قبح ما، هي الفترة التي فصلتنا عن جمال قديم كان يسكن فينا وقت جاء والدانا في الخمسينيات للحياة، وعاشا شبابهما في صخب السبعينات المستحدث وأناقتها الملونة، وجئنا نحن في الثمانينات نحاول جاهدين إيجاد شيء جميل في بداية التسعينات وقت بدأنا ندرك ماهية الأشياء حولنا. كيف كانوا يقنعوننا بتلك الأمور التي ضحكنا عليها فيما بعد؟ ولماذا نظل نحترم كلاسيكيات السينما فترة الخمسينات والستينات، ونخجل من التسعينات كرقعة كبيرة متسخة في ثوب تاريخنا؟!

"كم كانوا يستهترون بنا! ما حدث لنا بعدها كان نتاجًا لكل هذا الركام من السخافات النمطية التي ضخمت سذاجتنا، وجعلت أغلب الناس يدورون كثيرًا في ساقية لا تنتهي إلا بعد فناء.

"فكم كنت أضحك بصوت عال داخل ذاتي عندما ألمح ذلك الشاب الذي يحاول أن يلفت نظر الفتيات بإفيهات وكلمات معلبة وقديمة، أو حتى جديدة أخذها من على ألسنة أقرانه. إن أمثاله لا يمكن أن يكونوا شيطلائكيين. إنه يرتب الكلام كما تلقاه تمامًا، من أين تلقاه ومن أين أتى به؟ لا يهم. المهم أن الكلام ملقن، وتأثير كلامه على الفتاة التي أمامه يتوقف أيضًا على نمطيتها، فإن كانت نمطية فسوف تحب كلامه؛ ذلك أنها لا تريد إلا أن تتقمص دور فتاة كليبات أغاني التسعينات التي يتطاير ذيل ثوبها وشَعرها، تريد أن تشعر بأنها مرغوبة، وأن هذا الكلام دليل على أنها مرغوبة، حتى ولو كان هذا الكلام نمطيًّا ومستهلكًا، إنها ثقافة التسرع، هي تريد أن تعيش لحظتها بسرعة وتحشو أذنها بهرطقات، ربما لو كان يتحدث إليها بعبث وبعشوائية لقال كلامًا أكثر صدقًا وخصوصيةً. لا أحد يدرك ذلك، إلا قليلاً، إن الفوضى تخلق أحيانًا جمالًا لا يمكن للنظام أن يخلقه، تمامًا كبقع الألوان الزيتية السابحة على سطح الماء، اسحب عليها ورقةً

وسجل تناغمها الجميل الذي تعجز المساطر والمناقل والبراجل وكل أدوات النظام والهندسة عن الإتيان به، للفوضى لذةة تزيد كلما زادت مدة انتظامك السابقة لها. اكسر نظامك وقل ما أحلى الفوضى بعد طول انتظام. إنها شعار الشيطلائكيين.

"لأن الشيطلائكيين تغلبهم الفوضى في كل شيء، فلا يستطيعون أن يشعروا بالأنس دونها، لابد أن تزدحم الغرفة بالأشياء؛ ليشعروا أن هناك دفئًا ما، المهم أن كل شيء نظيف، لكن لا يهم إن كان موجودًا في مكانه أو أن غطاء السرير ليس مطويًا. وصل بي الحال مرة أني أخذت أفرد شرشف الفراش المطوي لأشعر بامتلاء المكان به، لا أحبه مطويًاأو مفرودًا بنظام، أشعر حينها أني لست على ما يرام ، حتى وأنا أكتب أرتجل دون تنظيم لأفكاري، أنا أكتب عبثًا، ليكون حرفي أكثر صدقًا، فمن ينظمون ويخططون لكل شيء يصيبهم التصنع أحيانًا فيلجأون به للتقنع والتخفي، فالمتصنعون المتقنعون ليسوا شيطلائكيين على أية حال. ربما ميزة الشيطلائكين أنهم يحاولون استعادة الأمور بشكل طبيعي، وتحويل الحياة إلى طبيعتها كما كانت في السابق قبل أن تغزو الأرقام والرقميات هذا العصر. أن تكون شطلائكيًا يعني أن تعيش الماضي بروح عصرك وهذه ميزة كبيرة؛ فسمة هذا العصر أن أصبح كله نظاميًا رقميًا، يُعاني فيه الشيطلائكيون أمثالي، ويعيشون في عصور قديمة في داخلهم ينتمون لتلك العصور التي كان لكل شيء فيها قيمة، كان للثياب قيمة أكثر من الآن؛ لأنها كانت تصنع لتدوم صيحتها عقدًا من الزمن، والنساء كن جميلات بدون أي تدخلات جراحية، أنا أتحدث عن الخمسينات والستينات والسبعينات، بالرغم أني لم ألتحق بهذه السنوات إلا من خلال الصور وذكريات السينما والتلفاز. إلا أني أعيشها داخليًا إلى الحد الذي يجعلني أتمنى أن أنزل إلى الشارع اليوم بفستان كفستان سعاد حسني، أو بقبعة راقية كقبعات فاتن حمامة، بالطبع لو فعلت سأُتهم أني لست بعصرية وأني غريبة الأطوار، لا تهمني هذه الاتهامات في عيون البشر العاديين السطحيين

المتناثرين على الأرصفة؛ فأنا أعلم جيدًا ألا عمل لهم إلا مراقبة غيرهم، وتسليط ألسنتهم عليهم. أحيانًا أنا لا أراهم؛ لأني سأبحث عن معادلة تحقق لي شيئًا من الرضا، سأبحث عن مزيج من العصرية والكلاسيكية التي بداخلي؛ لأستخرج لونًا مميزًا خاصًّا بي وحدي، فأنا لا أخضع لقوانين أحد، فكريًّا أو ثقافيًّا أو حتى اجتماعيًّا، وسيأتي اليوم الذي أسير في الشارع وأنا أرتدي فستان كفستان سعاد حسني من الشمواه العصرية وفي أذني سماعة متصلة بموبايل من النوع الذكي. أنا لا أشوّه الكلاسيكية، ولا أشوّه العصرية. أريد أن أضع فقط وردة بيضاء بين نهدي العصرية والكلاسيكية، شيئًا ما يربط بينهما؛ لأعيش في سلام نفسي ما أستشعره فقط في داخلي، مع علمي أني سأرجم في حال اختلفت عن نمطية المجتمع العمياء، رغم أني لم أفعل كبيرة من الكبائر، لكني أنحت من هذين الكيانين مصطلحات تناسبني وتتوافق مع أيقوناتي الخاصة النادرة التي قلما أجدها، بت لا أراها حولي فأنا شديدة البذخ كحقيبتي البدوية القماشية التي ينفر منها العالم الرقمي من حولي. أوحيدة أنا أم أن هناك في هذا العالم مثلي؟

أين أنتم أيها الشيطلائكيون؟

"قلما وجدت شخصًا أحكم عليه بأنه شيطلائكي فيمن حولي، مع كون بعض الأشخاص شيطلائكيين ليس بالأمر الجيد أحيانًا؛ فالأشياء المتشابهة تتنافر في كثير من الأوقات. لكن يبدو أنهم ينقرضون ويتقلصون بزيادة عوالم الديجيتال والنظام الرقمي الذي ساد عوالمنا، بالرغم من تواجدهم فيها بطريقة تميزهم. فهم ضد الأرقام على أية حال أينما ظهرت، هم ضدها فعلاً، ولا يطيقونها في حساب حسبة أو حل معادلة، أو تشغيل آلة، لا أحد يسألني عن نوع موبايلي أو رقمه، بالتأكيد أنا لا أعرف! لا أحد يطلب مني مدة الوقت الذي يلزمني لأنهي عملاً ما؛ فأنا أنتهج البركة في أعمالي، أنا بدائية حد التيه في الزمن، ولماذا سأحسب لنفسي الدقائق والثواني وأفقد تركيزًا قد يساعدني لإنجاز شيء آخر بطريقة أفضل، أنا أشتري المحمول؛ لأن شكله أعجبني بغض النظر عن رقم آخر

إصدار حدث لنوعه، ولا أعرف أنواع السيارات الحديثة وماركاتها وأرقامها، لكن أعرف جيدًا أن السيارات الحمراء تجذبني، هكذا دون أن أفكر أساسًا في تجربة قيادتها فهذا بالنسبة لي أمر مستحيل، وأقرأ كل مرة نفس آخر الصفحات التي قرأتها في الكتاب؛ لأنه يستحيل علي أن أتذكر أو أحفظ رقم آخر صفحة توقفت قراءتي عندها، هذا فقط ما أعرفه، ولا أحفظ أرقامًا عن ظهر قلب إلا لو اقترن الرقم بعشق لا ينسى؛ لأني لازلت أحفظ آخر ثلاثة أرقام في رقم حبيبي، نعم ثلاثة أرقام فقط، وهذا هو أقصى عدد أرقام يمكنني حفظه، إنه الرقم المحفور في ذاكرتي لأول حب وآخر حب في حياتي، إنه أول رقم لك... وآخر رقم لك دخل قلبي 938. والسبب هو أنه يمثل أفضل فترات حياتنا... حتى الأرقام تجمد أحيانا الوقت والذكرى عندي!

"إن باستطاعتي أن أجعل للأرقام مدلولات عشق، كالأرقام السرية لحساباتي الإلكترونية، التي لا تخلو من ذكرى تربطنا معًا، أو رقم يرتبط بك.

"الوضوح المتناهي سمة الشيطلائكيين، تظهر هنا ملائكيتهم الشديدة فهم يعتبرون الغموض نفاقًا مع الذات، وتصنعًا أمام غيرهم، وبالنسبة لهم فإن الأشخاص الغامضين هم مجرد خونة لأنفسهم؛ لأنهم يخفون تفاصيلها عن الآخرين، وذواتهم تحمل الكثير من الأخطاء التي تفقدهم الثقة في أنفسهم فيغلفونها بالتجمل أو بالغموض. لذلك فهم يخفونها بكل ما يمتلكون من طاقة. والمتجملون بما ليس فيهم أيضًا لا يستحقون الحياة في نظر الشيطلائكيين؛ لأنهم مجرد صدى صوت يرددون فقط ما يُملى عليهم من شعارات الفضيلة، فيصرخون بها في بوق التجمل أمام الجميع، لكن هؤلاء لا نستطيع اكتشافهم إلا من المواقف، الاستماع لهم قد يصيبنا بنوبة قلبية من فرط المثالية، لكن من موقف واحد تسقط الهالة، وينقشع الطلاء ويظهر الصدأ؛ لأن هناك قاعدة شيطلائكية تنص على أنه: (كلما تكلمت عن ذاتك، كلما قلت إنجازاتها)؛ فأصحاب الألسنة الطويلة يملكون أذرعًا قصيرة، وأصحاب الأذرع الطويلة

يملكون ألسنة قصيرة. لذلك فإن الغموض أو التغامض ليسوا من صفات الشيطلائكيين، وإلا لما اعترفوا بشيطنتهم الممزوجة بملائكيتهم وحاولوا إخفاءها. إنهم بكل بساطة معترفون أنهم خطّائون، يظهرون بساطتهم بكل بساطة، الهالة الملائكية تتصدر وجوههم دائمًا فهم مميزون بملامح خاصة؛ وملامحهم إما هادئة أو جميلة أو عابسة رغبة في إخفاء البياض الداخلي، بالرغم أن تلك الملائكية وهذا البياض لا يحتاج أحيانًا إلى مثيرٍ؛ ليظهر.

"أنا شيطلائكية تركب أرجوحة بين الماضي والحاضر، أخشى الشر المختبئ وراء سواد شيطانيتي، ولا أستطيع أن أستمر في إظهار بياض جناحي ملائكيتي، هناك شيء يمنع دائمًا، هناك أمرٌ ما يجعل البياض لا يكتمل. وكأن الجناح الأبيض في الماضي يكبر والجناح الأسود في الحاضر يكبر، مما يجعلني أخاف على مستقبلي من ذلك السواد، أنازع الذات المتأرجحة؛ كي تجذب بياض الجناح الأبيض نحو المستقبل، لكنها خائرة القوى، ضعيفة وهشة، فلا يكون بإمكانها سوى التوقف والثبات، عالقة بين الأبيض والأسود. لا تحب النوم؛ النوم يسرق منها الحياة، يعيدها إلى عالم غير محسوب.

* * *

"لقد كان الوحش الذي بداخلي يجبرني على تحويلها إلى شيطلانكية".

الشيطان الأبيض

كنت لا أطمح لأن أفقدها كل ملائكيتها. كنت أرغب في أن تشاركني جزءًا من شيطنتي مع بعض من ملائكيتها؛ لنتوافق ونتكامل في نفس الوقت، ليكون هناك ثغرة ما يتسلل عشقي لها منها.

لكن نسير في الطريق ونحاط بالنمطيين في كل مكان، وكأن القدر يضعنا في صراعٍ مُضمَر معهم، ووضع له مستويات، كألعاب الفيديو القديمة التي تربى عليها جيلها الجيل الذهبي جيل الثمانينات الذي عاصر كل شيء، ويدفع تكاليف ما يعاصره في كل حياته أحيانًا بحياته، وفي النهاية يضطر لمقابلة الوحش؛ ليفوز بكل مستويات اللعبة القدرية. ربما أنا الوحش الذي أرسلته لها اللعبة القدرية، لكني وحشٌ عاشق.

ولقد كان الوحش الذي بداخلي يجبرني على تحويلها إلى شيطلائكية. هذه الرغبة التي ظلت تكبر وتتضاعف، حتى بدا لي أنها بدأت في التحوّل، فما كان لها إلا أن تواجهها في نهاية المطاف بكل ما جمعته من الأحلام المحققة، كل ما جنته من أتعاب الحياة، قد تدفعه ثمنًا لذاتها الشيطلائكية التي زرعتها فيها خلال الأحلام. عندما ناديتها بشيطلائكية لأول مرة في حلمها، أعجبها الاسم المتفرّد، وراحت تتغناه وتعتنقه وتطلقه على نفسها كاسم مستعار، أصبحت أيقونة الشيطلائكية تجبرها على التمرد على كل شيء، حتى على إنجازاتها.

رغم أن تفسير كلمة شيطلائكية صعب؛ لأنه مصطلح مستحدث عليها، إلا أنها ظلت تحاول كشف أمر نفسها لنفسها لتصل لحل مستتر، تحل به ما طرأ عليها من جنون قريب دون أن يشعر أحد أنها قد جُنت.

فرغبة منها في الانفصال عن كل العوالم التي يرتادها النمطيون، هربَت من الواقع المحشو بالنمطيين، وعاشت في صندوق مغلق، تعيش فيه "ألف ألف حياة" كما أردتها أن تكون كنت لا أفراقها، لا تفوتني منها فكرة، أو شرود، أو خاطرة. كنت أريد التشبع بها؛ لأغمرها بي من خلال شيطلائكيتها.

****

- مطلوب منك أن تعود فورًا إلى المغرب في دقيقة. سأكلّف غيرك بهذه المهمة فقد خذلتني!

- سيدي، أرجوك دعني أكمل؛ لقد اقتربت من الهدف كثيرًا. عندما تكلف غيري بهذه المهم سيمضى وقتًا أطول من وقتي في تنفيذها. وأنا اقتربت جدًّا، وبدأت أقنعها أن تؤجل الزواج. أمهلني وقتًا إضافيًّا ولن أخذلك. اطلب من ريهام المزيد من المال لتتم العمل!

- أقنعتني أيها المحتال! لكن يهمني أن تسرع! لن أكرر هذا التنبيه ثانيةً!

- سيكون الأمر منتهيًا قريبًا. أعدك.

كنت أخشى أن يتشبث بما كان ينوي فعله. تنفست الصعداء حين اقتنع. أمثال سيدي هذا لا يمكن إقناعه إلا بالمزيد من المال. متأكد أن ريهام ستحوّل له بنكيًّا المزيد من المال؛ لأنه وصلها أن الزواج قريب. ستفعل أي شيء للإسراع، وقد تستعين بشيء من رائحة وقطر ميريهان أو جمال وهي الطريقة القديمة التي طورها سيدي، إلى الحد الذي كان بإمكانه سحر أي شخص من صورته على

مواقع التواصل الاجتماعي. سيدي لا يمزح مقابل المال أبدًا، يفعل أي شيء. المهم المال.

بعد كل هذا الشقاء مع السيد الجشع الذي لا يكف عن إرهاقي، كان عليّ أن أغفو وأرتاح...

غفوتُ على كتفها الأيسر في ليلة من ليال شتاء القلب وشتات الهوية، أمسكَت بقلمها وكتبتْ في كتابها المزركش، وكنت أتابع حبر قلمها بعيني: "الهروب يطاردني، عشقته وعشقت اللامبالاة، هما مفرداتي التي لا مرادف لها في الواقع الذي يجبرني على المواجهة واللامباة بكل شيء كالنمطيين، لكن هيهات أنا أتصنع اللامبالاة، أنا لا أبالي بشيء ولا بأحد.

"ناعسة عيناي تهذي سقم الروح الذي طال أمده في حضرة شيطنتي، تترنح روحي لتبحث عن عوالم روحانية تلتقي فيها مع خالقها، لكنها خجلة، والخجل نقاء يعكس ملائكيتها، انصهرتُ كمزيج من الوقاحة والخجل، وبدأت أكتب أحرفًا كثيرة عن شيطلائكيتي. رسالة إلى حبيبي الذي أنجبتُ منه أحلامي:

"جمال، عُد إلى أصلك أيها الشيطلائكي. ودعك من النمطيين الذين سيحولونك لنمطي عقيم مثلهم. ولن ترضى عنك نمطيتهم إلا بعد أن تتبع منهجهم ولا تشذ عنهم في شيء. لا تتعجب من الوصف؛ فهذا هو السبيل الوحيد للهروب من مسوخ النمطية، سأعلمك في هذا التخاطر الذي سيصلك وقت أن تتواصل أرواحنا كما تعودنا في الماضي: كيف تصبح شيطلائكيًّا جميلاً مثلي. الشيطلائكيون وحدهم تقودهم عقولهم وقلوبهم، ولن يغيروا ذلك حتى لو علموا أنهم مقادون بها إلى الجحيم. لا يمكن أن يديرهم أحد إلا في حالات العشق. أنا مختلفة ياجمال! لماذا لا تستوعب؟ هناك فرق بين فتاة شيطلائكية ولا شيطلائكية.

"فتلك الفتاة التي تقف أمام المرآة، وتضع ألف دبوس في طرحتها، لا يمكن أن تكون شيطلائكية، هي عادية تقلد فقط، تعلم أن الطرحة لا يمكن أن تثبت على الرأس إلا بالدبابيس فتضع الدبابيس فيها دون وعي.

"أما الشيطلائكية؛ فلا مانع لديها أن تضع طرحتها دون دبابيس، هي تتباهى بأنها تسير بطرحة دون دبوس؛ لأنها أصبحت مختلفة عن الكثيرات، لقد روضت طرحتها وأبقتها على رأسها ثابتة دون دبوس، المهم هو الاختلاف والسيطرة التي تعطيها قوة داخلية، فلا شيء قادر على إيقافها، ولاشيء يمكن أن يعترض على رغبتها في تطويعه لها. تمامًا كرغبتي في تثبيتي في قلبك والتخلص من دبابيس صمتك التي لا تكف عن وخذي، أريد أن أحررك من جمودك، كطرحتي المتحررة. ومع أن هذا التشبيه مجازي وبسيط إلا أنه لو سمعه أحد العاديين، سيرد هنا ويقذف سؤالاً غبيًّا قائلاً: وكيف للطرحة أن تثبت دون دبابيس؟ حتمًا ستنزلق وتسبب حرجًا، وتكتشف صاحبتها حينها أنها لم تكن على صواب يوم أن قررت وضعها دون دبوس واحد!

"وسأرغم نفسي على الإجابة عليهم رغم أني أكره أسئلتهم، وأقول: هذه ليست قصتنا أيها العاديون، القصة والسر يكمن في التفرد بطريقة تفكير تختلف تمامًا عن الآخرين، فبالتأكيد هناك أقمشة سهلة الانزلاق وأخرى لا. ومن البديهي: أن تضع طرحة من القماش الذي لا ينزلق. إنها الحكمة في انتقاء الخامة، لكنكم ضيقتم الأفق على أنفسكم، فصرتم تضعون الدبابيس على الطرحة ذات القماش القابل للانزلاق، وعلى غير القابل للانزلاق. تمامًا كما تدبسون حياتكم بقيود لم يضعها غيركم، بل وأكثرتم وبالغتم في عددها، ولأنني أعلم أن قلبك قلب ليس كالشيفون المنزلق بنفثة أي هواء، بل غير قابل للانزلاقات التي تنزلق لها قلوب الرجال هذه الأيام، خامة قلبك مريحة، قطنية تثبت دون دبابيس. لذلك وضعتك على رأس قلبي، وأبعدتك تمامًا عن تلك التناقضات من السواد

والبياض الذي يمتلئ بهما من الداخل بسبب تناقضاتي، فلم تعد تنطلي عليك شيطلائكيتي. أنت استثناء؛ لأنك شاركتني شيطلائكيتي دون أن تعلم، كان هذا في الماضي، وقت كنا عاشقين متشردين، تستغيث جسور المدينة من أقدامنا، تلعق الأرض أذيال بنطالك وبنطالي الواسع، اثنان نحن في كيان واحد، تلفت أنظارنا أشياء معينة، تلمع أعيننا عند اكتشافنا لأشياء يلسعها الضوء فتصرخ تناجينا وحدنا، زياراتنا لمعارض التشكيلين الكبار وساقية الصاوي معًا، كنا نعيش يارجل! كانت صحتنا جيدة رغم أننا كنا نتناول شطائرك المفضلة من عربة الكبدة التي أصبحت الأفضل لديك من كبدة المنزل وكبدة المطاعم الفاخرة، وقهقهاتنا ضحكًا حين كنا نراقب وجوه الناس، ونحن ننتظر أطباق الكشري ساعة المغرب في مطعم الكشري الذي لا تعترف إلا به، سفرنا الجنوني للمجهول في قطار لم أركبه يومًا إلا معك، كم كنا مجنونين وعاشقين، ضاربين بالمجتمع كله عرض تقاليده، كنت شيطلائكيًّا عظيمًا، لم تخرج من شيطلائكيتك اليوم إلا بسيجارة دامت معك في جميع فتراتك. اليوم تريد أن تكون نمطيًّا؟ ترتدي ملابس قماشية تحتاج لكيٍّ كل فترة وأخرى؛ لتحافظ على كسرة البنطال التي لا يعترف المجتمع بأن البنطال مكوي إلا بها؟! لماذا لا تكسر نمطية هذا المجتمع وتسحق كسرة البنطال هذه وترتديه دون كسرات؟ لتفعل ذلك حتى على سبيل التفاؤل بكسر أي كسرة! كيف يتاح لك أن تهزم كسراتك أيًّا كان نوعها ولا تفعل؟

"ثم أراك تحدد ذقنك الذي طالما عشقته مهملاً خفيفًا بمظهر عشوائي. والسبب أنك تريد أن تبدو كبيرًا في العمر، وأنا أريد أن أبدو صغيرة في العمر بالرغم من أننا لم نتخطَ الثلاثين ربيعًا، لماذا تريد ابتلاع شبابك باكرًا؟ أريد أن أسترد عمرك الذي اختزلته في ذقنٍ محددة، إني أملك هذا العمر معك فلا تعبث بممتلكاتي. ثم أخبرني لمَ تشبعت بطباع النمطيين في غيابي؟ هل جندتك الغربة؛ لتغويني لعلمها أنك عندي استثناء وعلمها أن النمطية تقتلني؟

"لماذا عشقتني إذًا؟ أليس من أجل أني شيطلائكية؟ كنت تفخر بشيطلائكيتي قديمًا، والآن تخجل منها؟ تخجل منها؛ لأنها خارج أي نظام نمطي متكرر يضيع معه العمر هباء دون أن تحقق فيه شيئًا تسعد بتحقيقه. من الذي تغيّر إذًا؟ أنت أم أنا؟

"عليك أن تستثنيني من قواعدك الآن كما أستثنيك أنا من شطحات شيطلائكيتي، ربما عليك أن تعتبرني استثناء كما أعتبرك استثناءً!

"دعك من تلك الموجة التي ألقت بك على ضفاف النمطية! اخترقها وعد إليَّ! لأسقط في عشقك للمرة المئة بعد الألف، فهكذا أنا... أحبك في الساعة بمقدار ألف نبض مما يدق قلبي، فحساباتي تلغي الوقت الزمني، ولا تتعامل إلا بسرعة دقات قلبي".

****

أصابني الذهول، كنت لا أصدق ما قرأته بقلمها، أردت تحويلها لشيطلائكية لتلائمني، فكتبت تحاول إقناع حبيبها بشيطلائكيتها؛ ليتحول هو بدوره إلى شيطلائكي يلائم تغيراتها الجديدة، وأحلامها الجديدة تاركًا عوالم النمطيين التي طالما امتزجا بها من قبل.

ماذا يمكن أن أفعل في جنونٍ كجنونها المتعقل؟! كيف تشبعتْ بما أردتها أن تتشبع به دون أن تبحث عني؛ لتتشبع بي كما تشبعت بها؟ لمَ أخذت مني ما أرادته تاركة لي ما أردتها أن تأخذه؟ كالذي يزيل القشطة من على وجه الحليب البارد حتى لا يملؤه الدسم، إنها لا تدرك أنها تعبث مع شيطان امتهن مهنًا تخطت شيطنته حد الملائكية لأجل الوصول إلى قلبها، من أجل أن تلحد بكل رجال الأرض إلاّي، لماذا تناولتْ الجرعة ناقصة؟

وعندما استطردت قرائتي لما كتبت له، وجدت إجابة آخر سؤال (لماذا تناولت الجرعة ناقصة)، فتقمصت أني هو لبرهة؛ لأشعر أني التلميذ وهي المعلّمة، لأشعر أنها تحدثني أنا ولو لدقائق، لأشعر أن كلمة حبيبي تقال لي أنا وليس له. أردت الاستماع منها إلى ما درّستُه لها في أحلامها. سأتمثل لكِ في صورة بشر، لا يجب أن أحرم نفسي متعة أن أكون مكانه.

* * *

وعلى رواق وفي هدوء وخواء بال...

الكتاب المزركش

أمسكتُ بدفترها المزركش الآتي من روائح زمن مضى بكل ما على غلافه من وردٍ وتفاصيل خاطفة، فتحته فوجدتها قد كتبت نفسها لحبيبها، محاولة استدراجه لعتبات روحها، وكانت هذه فرصتي لأتعرّف على هذه الروح أكثر، ربما تمكنني أحرفها من نيل درجة عندها لا يفوقني فيها أحد، ربما استطعت أن أهزم حبيبها في معركة أعلمها أنا دون أن يعلمها هو. قرأت لها:

"ما أجمل النقص!

"حبيبي وزوجي المستقبلي الغالي/ جمال، سأحاول إقناعك!

"فهذا الكتاب بمثابة عالم موازٍ يعيش به الشيطلائكيون، الكلمة ثقيلة جدًّا على لسانك، أليس كذلك؟ لكنك طالما قررت أن تقرأ هذا الكتاب، فهذا يعني أن الشيطلائكي الذي بداخلك سيخرج رغمًا عنك، بالتأكيد تريد أن تعرف من هم الشيطلائكيون؟

"فحتى تدرك المعنى الذي أريد أن أجعلك تصل إليه، ينبغي أن تجرد نفسك تمامًا من كل ما تعلمتَه في حياتك، أريدك كأُمّيٍّ ولد على الفطرة، أريدك أن تعود لعمرك مذ كنت في الخامسة والسادسة والسابعة من العمر، عندما كنت تتحول لملائكي وأنت غافٍ ليلاً. وكملاكٍ مفتوح الفم يغفو على دفاتره أثناء حل الواجب.

"منذ أن ولدتك أمك وأنت شيطلائكي، ألا تذكر حين كانت تنعتك أمك بالشيطان نهارًا عندما كنت تقفز وتمثل دور طرزان ممسكًا بستائر النواف؛ذ لتقفز من خلالها من مكان لمكان مدمّرًا كل بروتوكلات المنزل التي وضعتها لك والدتك، ثم تركض هاربًا من صراخها. وتراك نائما ليلاً، تقول لوالدك عنك: "كم أنت ملاك"، ثم تتبعها بكلمة: "الله يهديك!".

"هذا الطفل كبر، وأصبح أنت أيها الشيطلائكي. ما الذي جعلها تراك ملاكًا ليلاً، وشيطانًا نهارًا، وهي المسئولة عن كل جيناتك وهي الأصل في مجيئك، إلا اذا كانت تعلم أنك شيطلائكي.

"وتلك الصغيرة التي كانت تبتسم لأمها ابتسامةً بريئةً، ثم تذهب؛ لتفعل جرائمها البريئة في صمت، تلعب في أدوات الزينة الخاصة بأمها في هدوء تلطخ بها أسفل وجهها، أو تمسك بالألوان وترسم على الجدران البيضاء بحرية، فتكتشف الأم هذه الجرائم بعد انتهاء الصغيرة تمامًا منها، فيعلو صراخ الأم غيظًا من شيطنة ابنتها التي أظهرت لها أنها ملائكية بابتسامة ما قبل الجُرم، هذه الصغيرة كبرت وأصبحت أنا!

"لاداعي للتأفف من كثرة سقوط عينك على كلمة شيطلائكية في الأسطر القادمة، فقد قصدت نثرها كحبات اللؤلؤ المفروط داخلك؛ لتعتمدها كطراز؛ فالشيطلائكية أيقونة ستلمسها روحك فيمن حولك يومًا ما، ولن تجد مصطلحًا معبرًا يصف تلك الحالة إلا الشيطلائكي.

"قليلاً ما تجد أنثى شيطلائكية في هذا العالم، ممزوجة بالجموح والسذاجة في آن معًا، ترفض العالم وتتقوقع على نفسها كالقريدسة في طاسة العشاء، تفعل ذلك عندما تشعر بالحنين إلى ذاتها، تلفظ من داخلها كل ما هو نمطي، تسقط في عشق الأشياء القبيحة، فتدميها النهايات، تجدها تعشق أحيانًا الصدأ على المعادن؛ لأنه شكّل نقشًا يروق لها. تجد في القبح جمالاً أحيانًا تحاول

اسكتشافه والإعلان عنه للآخرين. لكن القبح رجل شهواني قد يغتصبها قبل أن تعلن عن الجمال فيه، فلا تجارِهِ بسخريتك بي، أو بقسوتك عليّ.

"ياأنت، لماذا تحولت إلى نمطي واستسلمت لتروس المجتمع؟ أنت شيطلائكي بالفطرة. أكنتَ تعلم ذلك؟ لست مثاليًّا فلماذا تحاول أن تكون؟ لن يزيدك هذا إلا إرهاقًا.

"كُتب عليك أن تكون شيطلائكيًّا معلقة روحك بين السماء والأرض، بين الطاعة والعصيان، بين الدهاء والسذاجة، بين الحب والكراهية، بين اللقاء والفقد... تترنح بينهما فلا أنت هذا ولا أنت ذاك باحثًا عن حالة اكتم،ال تتوهم أنك قد وصلت إليك ببقائك متمردًا على حالة الثبات الذي تفعله بك القوى المتضادة، ولا تسألني لماذا تقدم الشيطان على الملاك في وصفك بالشيطلائكي؟ فلو تقدم الخير على الشر في هذه الحياة، لكان أولى أن تُسمّى العُليا وليس الدنيا. الناقصون دائمًا هم من يربحون في هذه الدنيا؛ لأن النقص سمة مشتركة بينهم وبينها، ومن منا كامل؟

"كلنا ناقصون بلا استثناء، لكن ما أقصده هو أنك كلما زدت في نقصك كلما ربحت، الدنيا الناقصة تساندك، تغريك عن بُعد باكتمالٍ مستحيل لتظل تلهث، فأنت لا تبالي إلا بما ينقصك ساعيًا لتحقيق الاكتمال المستحيل، كلما نقص فيك الاكتمال، كلما شعرت أن الدنيا تليق بك، فتركض خلفها متوهما أنها قد تقول: "هيت لك"، لكن هيهات! استقر وضعك كالذرَّة التي استقرت عدد إلكتروناتها لا تريد أن تجذب أو تفقد المزيد منها، فقد مت وانتهى الأمر، فلم يعد هناك جديد في حياتك يحركك أو يجعلك ترغب في الحركة.

"أرأيت أن النقص هام؟ لو كنت كاملاً لما كنت ستصبح حيًّا؛ لأن الاكتمال لن يجعلك تتحرك لشيء، سيجعلك ثابتًا مستقرًا في مكانك، إن هذا هو السبب الأعظم وراء حالات إنتحار الأفراد الذين يعيشون في مجتمعات مترفة، أنا قد

أصل لحالة من الضجر عندما تتوفر كل الأشياء لدي، وأرغب أحيانًا في التخلص منها مقابل شيء جديد غير موجود لدي، وبمجرد الحصول عليه يحدث التمرد عليه من جديد، وتستمر دوامات التمرد في التوالي في تلك الفترة من حياتي التي ينعدم فيها النقص.

"دعني أصل بك من هنا إلى شيء من التسليم بأن النقص صفة جميلة ونسبية، لنعترف بها ونرضَ بها، بل ولنتفاخر بها. أنا بالتاكيد لا أقصد نقص الفضائل والثوابت الأخلاقية، لكن نقص السعادة مفيد أحيانًا، كانوا يقولون لي في صغري: "كم أنتِ جميلة عندما تبكين!). لم أفهم إلا عندما كبرت، نقص الأشياء التي نرغبها يولد داخلنا طاقةً وحياةً، الدموع والابتسامات تفجر داخلنا كل المتناقضات، للوصول إلى حالة الاكتمال، التي بمجرد الوصول لذروتها نكتشف نقصان شيء آخر. هذه النظرية أعتقد أنها هي السبب وراء المثل الشائع: (لا أحد ينال الأربع وعشرين قيراطًا كاملة). لكن الجديد أن الشيطلائكيين وصلوا لحالة من الإشباع والتشبع من كل شيء، وصلوا للاكتمال فتمردوا عليه رغبة في النقص. لا تتعجب! هذا ما حدث. فوصولهم للاكتمال والشبع يخيفهم ويشعرهم أن النهاية قريبة، فقد جربوا كل شيء، وعاشوا كل شيء، لقد شربوا الحياة بكل جرعاتها، وكل ما يريدونه هو الظمأ من جديد والارتواء من منابع حياة أُخرى جديدة تمامًا.

"الشيطلائكيون يحبون النقص؛ لأنه سنة الحياة. هم لا يسعون للاكتمال. هم لا يزاحمون النمطيين على الحياة وتكابلهم على مغرياتها، قليلاً ما ستجد شيطلائكيًا يزاحم الناس لركوب الميكروباص في ساعات الذروة، أتذكر؟ عندما كنت أنا وأنت ننتظر المواصلات في ساعات الذروة أيام الجامعة، كنت تقول لي: هل ستتركينهم يركبون هكذا؟ إن لم تزاحمهم، ستظلين واقفة، ولن نصل إلى بيوتنا! ثم بعد دقيقيتن تراني واجمة وشاردة (حالة الشرود هذه لا تصاحبني إلا في الزحام) أقرأ وجوه الناس في الطرقات كعادتي، محاولة استشفاف قصصهم.

كنت تقطع شرودي، وتسأل: ها؟ هل أطمئنتي عليهم جميعًا؟ هل ركب الجميع بسلام؟ حسنًا! لنستمر في الوقوف!

"قديمًا، كنا نستمر في الوقوف، وعندما تيأس من لاحراكي وعدم جدوى محاولاتي في الحصول على مكان، كنت تجاهد وتعافر، حتى نلقى مكانًا نستقر فيه لنصل إلى بيوتنا بسلام، وبعد أن وصلنا لبعضنا، فقدتك وقتًا من الوقت، كالماء الذي شرب نفسه، ضعتَ مني وسط الزحام، عاد لي جسدك بلا روحك التي كنت أسكنها، أين روحك القديمة؟ أخبرني أين خبأتها؟"

****

وضعت ميريهان الكتاب المزكرش في حقيبة ترتب فيها حاجيات الزواج. أمسكت هاتفها وأخبرت جمال بأنها جاهزة تمامًا للذهاب معه، وحجز القاعة التي سيزفان فيها. وكنتُ لا أستطيع أن أتمالك أعصابي خلال هذه المحادثة. إنها تقهر رغبتي، وكأنها ستلقي نفسها من قمة جبل، إنها تتحداني. لكن هيهات أيتها العنيدة... لن تتزوجيه... أنتِ لي!

بقي أسبوع على موعد الزفاف...

هاتفها يرّن في الساعة الثانية بعد منتصف الليل

- ألو؟

- ميريهان معي؟

- نعم! من؟

- أنا جارتك التي تسكن في الشقة أسفل شقتكِ التي ستتزوجين بها، وأحضرت رقمك من البواب، شقتكِ تغرق... يبدو أنكم نسيتم غلق المحبس المفتوح وقت كانت المياه منقطعة. الماء يغمرها إلى الحد الذي يجعله يسقط علينا قطرات قطرات من السقف.

- ياإلهي! ياللهول! سأبلغ جمال حالاً. هو الذي يستطيع أن يحضر ويتصرف الآن.

- لا يمكن أن يأتي الآن. تعالي معه في الصباح، ومعك أكثر من شخص؛ لأن الشقة غارقة غارقة. والمياه غمرت سلم العمارة، ونحن لا نستطيع فعل شيء. بقي خمس ساعات على طلوع النهار، احضري بعدها بسرعة.

- حسنًا. حسنًا. أشكركِ!

هاتفت جمال بسرعة، وأخبرته بالأمر، فما كان منه إلا أن صمت. لم يؤنبها على شيء رغم أنه من طبعه أن يؤنب. وفي الصباح ذهبا مع أفرادٍ من الأسرتين لملمة الموقف. أخذ الأمر ثلاثة أيام؛ ليجف السجاد ويتم إصلاح ما تلف.

ومازال الخطر قائمًا. لم يتأجل الزفاف يومًا واحدًا. لم أكن أعلم ماذا أفعل؟ لكن كان عليّ فعل شيءٍ آخر. الخطة التالية: اللعب في هرموناتها الجسدية عن طريق العبث بحالتها النفسية؛ لتأتيَها الدورة الشهرية في نفس يوم الزفاف تحديدًا. كنت أضع في طريقها للعمل كل الأشخاص الذين يملكون القدرة على جعلها عصبية: السيدة الحيزبونة، والأستاذ ملل، والأستاذ تسرع، والمدير الملتحي الذي لا يكف عن مضايقتها، وزميلتها التي فاتها قطار الزواج ببلوغها الأربعين، فهي مشروع قنبلةٍ نسوية ستنفجر بها قريبًا، وفي الحقيقة نجحت خطتي هذه في تأخر دورتها الشهريّة حتى يوم الزفاف. وما أصعب هذا على رجل شرقي صام وصام، ثم تخبره عروسه قبل ليلة زفافهما أنها ليست جاهزة! سيكون بالفعل في حالة يرثى لها، قد يؤجل الزفاف، و"قد" هذه أتعشم بها بشدة؛ لأنه إن حدث، فسوف أستخدم هذا جيّدًا.

- جمال!

- نعم؟!

- أنا لن أكون جاهزةً ليلة الزفاف! "البيريود جت النهارده"، وبكره الفرح. أنا آسفه إني بقولك كده. لكن كان لازم تعرف علشان تبقى جاهز نفسيًّا!

- هو إيه الفقر اللي احنا فيه ده؟

- أنا مش بإيدي حاجه!

- عارف. عارف. مش مشكله. زي ما احنا الفرح ف معاده بردو. وكنت عايز أقلك على خبر مش عارف هتتقبليه إزاي بس هو ف مصلحتنا! وأكيد هتتفهمي زي ما أنا تفهمّت!

- خير؟!

- الشركة اللي كنت باعتلها سيرتي الذاتية وكنت عملت الانترفيو من فترة علشان أتقبل فيها، وافقت وبعتولي التأشيرة النهاردة. خلاص قررت أسافر بعد الفرح بشهر، وحجزولي في المعاد ده، انا مكنتش فاضي أبلغك اليومين اللي فاتوا؛ لإني كنت مشغول جدًّا في تجهيزيات الفرح.

- إنت بتهرج ياجمال؟! عايز تتجوزني شهر وتسافر؟!

- مش بإيدي حاجة! انتِ عارفة إني سبت الشغل، ومفيش قدامي غير الحل ده، ووراية التزامات، وكلها تلات شهور وأجيبك معايا متقلقيش!

- مش قادره أستوعب كمية المفاجآت اللي بتحصلي الأسبوع ده!

- خير! خير!

وعلى ذكر الخير الذي أنهى به محادثته، كنت أشعر أنا أن الخير سيكون لي حتمًا، لكن سأكثّف العمل جيدًا، لابد أن يتأجل هذا الزفاف على الأقل. سأجن من تشبثكم ياكلاب، ياكلاب، قسمًا لأوقفن هذا الزفاف. فأنا الذي أسرعتُ لشقة الزوجية التي أثثاها معًا والتي سيزفّان إليها، وتحت صنبور الماء، وأغرقت كل شيء... السجّاد... وكل ما استقر على الأرض...، وأنا من هيأ نزول دورتها الشهرية قبل زفافها بيوم، وأنا الذي أشعلت نار الحزن في صدر زميلتها الأربعينية، وجعلتها تصاحبها في اختيار فستان الزفاف؛ لتصيبها منها عين تساعدني قليلة في إشعال الأجواء وتعطيل المراكب السائرة، وكانت جدته لأمه على فراش الموت، فزدت آلامها كي تموت قبل الزفاف بيوم، قد يُحدث هذا تغييرًا.

وها هي الجدّة تحتضر صباح يوم زفافهما، وها أنا أغلق محبس المياة في شقتهما والسخّان الكهربائي يعمل، سينفجر إن لم تدخله المياه خلال 24 ساعة، هذا يكفي! لنرَ الآن كيف يمكنكِ الزواج منه... ياغبية، أنا أعشقكِ! ياغبية، أنا أعشقكِ!

****

السيارة تتجه الآن نحو مركز التجميل. ميريهان مع أخواتها في السيارة. يرن الهاتف، فترد:

- معك ياجمال. ما الأمر؟

- تخيّلي! لقد بدأت أشكُّ فعلاً في الأمر وفي كل ما يحدث معنا، تخيّلي أن جدتي توفيّت صباح اليوم، وأمي حزينة على والدتها كثيرًا، وإخوتها يؤنبونها؛ لأنها لا تريد أن تؤجل زفافي.

- لطفك يارب! جدتك توفيّت؟ اليوم؟ ما الذي يحدث معنا؟ أشعر أن فرحتنا مرصودة، هناك شيء ما لا أستطيع إدراكه، لكن أريد أن أخبرك بأني حلمت حلمًا...

قاطعها: ليس الآن وقت سرد الأحلام ولا الكوابيس. أيًّا كان. اليوم يوم زواجنا تذكري ذلك، وعلينا أن نفرح ونتوج أنفسنا بعد كل هذه المعاناة والانتظارات، الحي أبقى من الميت، أمي حزينة على رحيل أمها، لكنها بالطبع تحبني أكثر. وسيتم الأمر رغمًا عن أي شيء. رغمًا عن القدر نفسه. لنصفع تلك الأقدار التي تعاندنا ونمضي. الحياة تستمر... وستستمر...

أغلقا الهاتف، ورأيتها بعدها شاردةً.. تكاد تكون مخدّرة، وأصبت أنا بشلل تام في

تفكيري، إنني لا أستطيع تعطيل سير قافلة الزفاف هذه! حتى الفواجع التي طبَختُها لم تُفلح، لم تقوَ حتى على إحداث انكماش لعواطفهما التي تأججت فجاة، وأخرجت أنيابها لتحارب القدر بالحصول على مجرد ليلة سينامان فيها جائعين لبعضهما البعض.

****

بدأ المدعوون يتوافدون على القاعة، وميريهان ستخرج الآن من مركز التجميل بسيارة عريسها نحوها، وأنا عاجز، عاجز أراقب جنازتي التي يسير فيها الناس بالورد ويُفرد فيها الشربات الأحمر بجانب الورد البلدي الأحمر الذي تحبه ميريهان. ميريهان هي ميتافيزيقا الأحمر في امرأة. آاااااااهٍ ياقلبي الذي يحترق!

ها هي تدخل القاعة وقد صفق الجميع، يمسك يدها، تُعزف الأغاني ويغنيان، ويرقصان، ألأجل هذه اللحظات فقط بعتِ حياتكِ القادمة ياغبيّة؟ اتبعتِ نهج جدتكِ ووالدتكِ! أنتِ لستِ مؤهلة لإفناء حياتك في قيدٍ كالزواج ياحمقاء! لماذا تزوجتِيه ياميريهان؟ ستعانين كثيرًا مع نمطية الزواج ومع رجلي نمطيّ، تزوجتيه حتى لا يتكلم الناس، ويقولون إن رحلتك معه باءت بالفشل ولم تنته بنجاح! إن كل تمرداتك على المجتمع كانت كذبًا ياميريهان؛ لأنكِ في النهاية خضعتِ له، وستدفعين الثمن غاليًا. لكن فليذهب سيدي إلى الجحيم! ولتذهب ريهام معه إلى أعمق جحيم! لن أتركِ حتى لو على ذمّةِ رجلٍ آخر.

****

قالت لأبيها مازحةً ليلة عرسها: أخيرًا هترتاح مني يابابا!

فصفعها وبكى، كنتُ أريدُ أن أصفعها صفعةً أكبر من صفعة أبيها السعيد الحزين!

****

- أنت أيها الكاذب المنافق الماجن عديم الشرف!

- سيدي، لا داعي للإهانات!

- تركتها تتزوجه؟ عد فورًا إلى مقرّك ياأحمق! لقد أتلفت المهمة، وريهام تريد استرداد مالها بمجرد أن سمعت الخبر. ظنتني نصّابًا، وسمعتي مهددّة بسببك! عد؛ لأني كلّفت ماردًا آخر غيرك، وهو في طريقه الآن، سلّمه المهمة، واتجه للغرب فورًا!

- وماذا سيفعل المارد؟ لقد تزوجا وانتهى الأمر!

- لقد وعدت ريهام ألا يتم هذا الزواج! سأربطهما، والمارد سيؤكد لي عملية الرّبط الليلة.

- لا داعي لذلك؛ لقد فعلت ما يجب؛ كي لا يحدث بينهما أي شيء! أنا مازلت على قيد هذه المهمة، ولن أسمح لأي مارِدٍ آخر بالتدخل أو إيذاء ميريهان.

- يبدو أن شيطاني المدلل عَشِق!

- نعم. ولن أتركها له. ماردك لن يكون أحرص مني على أن تكون ميريهان خارج هذا الزواج في أسرعِ وقتٍ ممكن!

- ولماذا؟ أستتزوجها أنت؟ ما الفائدة؟ أشم رائحة رغبةٍ في الخروج عن طوعي!

- العفو ياسيدي! لكني لا أستطيع حقًّا مقاومتها، ولي عندك سنوات طوال في الخدمة وتلبية كل طلباتك وطلبات قبيلة الجان والشياطين من أكبر مارِدٍ لأقل عفريت. والعشق لا ديانة له، فاعذرني أطلب منك أن ترحمني هذه المرة... أرغبها بشدّة! أتترك لي المهمة كما كنا فهناك ثأر كبير، علمتني العِناد وعدم الاستسلام، وها أنا أفعل وأتبع نهجك ياسيدي! فأْمُرْ ماردك بالعودة. وأخبر ريهام أن السحر لن يقوى مفعوله إلا بعد وقت، وأكِد لها أن جمال سيكون بين يديها في أسرع وقت ممكن.

- لا أدري من يتلقى الأوامر مِنْ مَن؟

- العفو ياسيدَ بني الجان، كل ما أطلبه منك هو الانتظار. الزواج ليس مقدسًا لنا، ولن يكون مقدّسًا لهما. سينتهي هذا الأمر قريبًا.

- أرسلت لك طلسمًا. أعطه للمارد الذي أوشك على الوصول إليك؛ ليرتد عائدًا إليّ.

****

عن أبي السائبِ مولى هشامِ بنِ زُهرةَ، أنه قال: دخلت على أبي سعيدٍ الخدريّ، فوجدته يُصلي، فجلست أنتظرُه حتى قضى صلاتَه، فسمعت تحريكًا تحتَ سريرٍ في بيتِه، فإذا حيةٌ، فقمت لأقتلَها، فأشار أبو سعيدٍ أن اجلسْ، فلما انصرف أشار إلى بيتٍ في الدارِ، فقال: أترى هذا البيتَ؟ فقلت: نعم. قال: إنه قد كان فيه فتًى حديث عهدٍ بعرسٍ، فخرج معَ رسولِ اللهِ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ - إلى الخندقِ، فبينَا هو به إذ أتاه الفتى يستأذنُه، فقال: يارسولَ اللهِ، ائذنْ لي أُحدثُ بأهلي عهدًا، فأذِن له رسولُ اللهِ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ - ، وقال: خذْ عليك سلاحَك، فإني أخشى عليك بنَي قريظةَ. فانطلق الفتى إلى أهلِه، فوجد امرأتَه قائمةً بينَ البابينِ، فأهوى إليها بالرمحِ ليطعنَها، وأدرَكته غيرةٌ. فقالت: لا تعجلْ حتى تدخلَ وتنظرَ ما في بيتِك. فدخل فإذا هو بحيَّةٍ منطويةٍ على فراشِه، فركز فيها رمحَه، ثم خرج بها، فنصبه في الدارِ، فاضطربت الحيةُ في رأسِ الرُّمحِ، وخرَّ الفتى ميِّتًا، فما يدري أيَّهما كان أسرعَ موتًا، الفتى أم الحيةُ؟ فذكر ذلك لرسولِ اللهِ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ - ، فقال: "إن بالمدينة إخوانًا لكم من الجن، فإذا رأيتم مثل هذا فآذنوه ثلاثًا، فإن بدا لكم أن تقتلوه، فاقتلوه فإنما هو شيطان".(*)

---

*الراوي إسناه صحيح. عبدالله بن عباس.

دخل العروسان شقتهما، هادئةٌ أضواؤها، تحمل ميريهان ذيل فستانها الأبيض، وخلفها أخواتها يُقبّلنها على الباب، ويغادرن. يُغلق الباب عليهما، إنهما الآن في بيتٍ واحد، لن أتركهما الليلة بالطبع، مع أنني واثقٌ أنها ستبقى عذراء لي، لكن غيرتي الشديدة عليها كانت أكبر، أريد أن أكون ذلك السهم الأخير الذي يطعن جمال فيلهيه عنها، ربما الحل في أن أعقد لسانه تمامًا عن الكلام الجميل الذي تحبه ميريهان، حتى لا أسمح بأي نوعٍ من التقارب بينهم ، فلطالما كان عذابها في صمته عنها، فلتكبر إذًا فجوة عذابكِ ياعنيدة، وليكبر معها الجفاء.

تم ربطُ عقدة لسانِ جمال بنجاحٍ. الحمّام جوار غرفة النوم. إنه صوت فرقعة كهرباء صغيرة لفتت نظر جمال، انتبه جمال إلى أن السخان يحترق من الداخل فأصابه الهلع، كانت ميريهان وقتها تخلع فستان الزفاف الذي كانت تتمنى أن يكون هو أول من يخلعه عنها. هيهات ياجميلة فأنا هُنا. لن تشعري بهذا الإحساس مع رجلٍ غيري. سمعت صوت الفرقعة فأصابها الخوف...

- جمال، فيه إيه؟

- هناك من أغلق محبس المياه بعد حادثة غرق الشقة حتى لا تنزل المياه مرة أخرى، وترك السخّان مفتوحًا بلا ماء يصل إليه فاحترق. وقد تداركت الأمر، لكن هناك خطر من بعض هذه الأسلاك العارية. صدقيني ما يحدث معنا ليس طبيعيًّا على الإطلاق. ورغم ذلك نحمد الله أني انتبهت للأمر. سأحاول إصلاحه.

- لا داعي لأن تعرض نفسك للخطر، وفي الغد اطلب كهربائيًّا!

- لا داعي لذلك. الأمر بسيط. لا تقلقي!

أمضى جمال ثلاث ساعات يصلح السخان، كلما أوشك على الانتهاء، أُخرج له سلكٌ عارٍ جديدٌ يضطر إلى معالجته حتى لا يحدث ماسٌّ كهربائيٌّ بملامسته للماء. مضى الوقت وميريهان غفت ونامت حتى الصباح، استيقظت فوجدته جوارها ممدّدًا دون أن يضع على جبينها قبلةً واحدةً. هذه أولى تعاويذ الزواج ياجميلة. بؤسٌ وبردٌ وحرمانٌ! احتسِ إذًا.

في هذه الأيّام كانا صامتين. هو معقود لسانه، وزدت أنا من عقدته. وهي تبادل الصمت بالصمت. تستجدي عاطفته ببوح حالم منها، فتجده يحور الحديث إلى مُزاحٍ خالٍ من أي عاطفة، وكأنه طفل ويعاملها كطفلة. أنسيته أن بين يديه امرأة ناضجة لم تُنْهِ خامسة وعشرين ربيعًا بعد.

مرت الأيام، أسبوعًا وراء أسبوع ، حتى انتهى الشهر، كلاهما غائبٌ عن الآخر.. كلاهما حزين، ولم تشعر إلا بوقت رحيله الذي أزف، وشُد به قلبها بمسمارين وخنجر عذاب قادم.

مر شهرٌ فشهر فشهر، والأيام تمر، ولم يفِ الزوج الغائب بوعده... رغمًا عنه وضع في خانة إكمال الرحلة بدونها... أيقنت بذلك بعد مرور الشهور!

عودي ياميريهان لكتابكِ المزركش إذًا واكتبي. اكتبي وادهشيني ودعيني أنتشي!

قرأتُ لها: "اغتربتَ، فاقتاتت على قلبك الغربة، وجدت المكان لكلينا على الأرض، لكني بحثت في قلبك عن مكاني القديم فوجدته قد تلاشى، من أخذ مكاني في قلبك أخبرني؟ التزامات الحياة النمطية أليس كذلك؟ حوّلوك إلى إنسان آلي، سلبوك مني، سلبتك نمطية الحياة حبي، بتَّ لا تناجيني قبل أن تغفو، تغلق عينيك فتغيب حتى عني، أرأيت لماذا عاديت النمطية في غيابك؟ أرأيت لماذا لم أعد أبالي؟

"خشيت أن تأكلني نمطية الحياة وتحوّلني إلى مخلوق يكرر نفسه، ففضلت أن أتحول لشيطلائكية أبحث عن حياة ملونة بلونين (تارة الأسود وتارة الأبيض) حتى لا أعيش في لون واحد، لون التكرار الذي تمردت عليه وعلى كل شيء أخذني منك وأخذك مني حتى لو كان المقابل لي.

"وحدث النقص، حصلت على شيء وفقدت آخر، أنا لك وأنت لي لكنّا لسنا لنا، غبت بعد اكتمال كاسات شربات زفافنا فشربها المدعوون وبقيت أنا بعدها عطشانة لك، وعدتني ذات نزهة أنك لي وحدي، فلماذا نكثتَ بوعدك وتركت الغربة تشاركني فيك على غفلة كضُرَّةٍ سرقتك مني؟

"كعادة الحياة تهدينا النقص على طبق من اكتمال الوجع، وكأنني لم أعد أراك فيك، عيناك الضاحكتان باتتا ذابلتين مطفيتين كأعين أغلب شباب بلدي اليوم، ولم أعد أجدني فيك كما السابق، هاتفتك مرة بأني أرغب في أن أسقط في عشقك من جديد، ألف مرة ومرة؛ لأنعم كل مرة من لحظة البدايات المشتعلة، لكن نمطية الحياة أوقعت بيني وبينك وأفهمتك أن هذا يعني أني توقفتُ عن حبك، لم تفهم أني بحاجة لحبك بطريقة جديدة، تسد حجم تلك الفجوة الكبيرة التي سببتها جرافة الجمود بيننا، كنا نسير في اتجاهين متعاكسين طوال الوقت، ولم يلتفت كلانا للوراء للحظة ليتدارك ما فاته من الآخر. كنتُ أغلف ثغري بعبوس وأنا أسير خشية أن يستسهلني البعض، ورغبة في كف أذى الآخرين عني ومضايقاتهم اللامبررة التي اعتادت على سماعها أي فتاة تسير بلا ذنب في

الطريق، وكنت تغلف نفسك بمزاح وضحكات مدوية ربما لاستقطاب الآخرين، أنا أدفعهم عني، وأنت تقربهم منك، فجذبتني معهم بمغناطيسك، عبروك لأنهم نمطيين لا يملكون شفرتك، أما أنا فبقيت فيك ولم أغادر؛ لأني كنت المفتاح الذي تطابق مع قفلك، كنا متكاملين. وعندما نضجت يرقاتنا، التقينا بجناحينا على زهرة واحدة، سرعان ما أذبلتها نمطيتك.

"أخبرتُك أن اعشقني كما لو كنت عشيقتك لا يربط بيننا أي رابطة مقدسة أو التزامات حياتية. اسرقني واهرب بي بعيدًا، لا أريدك كما السابق ولا كما الحالي، أريد كمًّا مهولاً من العشق الكبير؛ ليغطي عري روحي منك لسنوات، أنا ناقصة دون روحك المفقودة هناك على الرصيف الممتد للجامعة، فالحياة تنقص من أرواحنا أجمل ما فينا، وما سلبته الحياة من روحك كان يخصني، يخصني وحدي، مازلت أبحث عن ممتلكاتي فيك، لولا أن هذا النقص فيها حدث لما ظللت أبحث فيك، ولما ظللت أتقرب من قلبك كل يوم لأستخرجها منه عنوة، ولما وأدت لساني حتى لا يزعج الصمت الذي تحبه دائمًا وأكرهه أنا فيك. أرأيت كم تشبثت بك رغم أن أرض المسافة التي تحملنا كانت زلقة؟

"هذا ما يجعلني مختلفة عن الأخريات كشيطلائكية، فأي فتاة نمطية لا تبحث في حبيبها ولا تتشبث به، بل تنتظر أن يبحث هو فيها، صحيح أن هذا الأمر ممتع للجميع وأن أي امرأة ترغب دومًا في أن يكتشفها فارس ويخرج كنوزها ويسقطها على أذنيها، لكن الشيطلائكيات إن لم يجدن ذلك لا يصيبهن الملل من المحاولات في الغوص داخل الحبيب الصامت دون أن يعلم برحلات الغوص هذه، وإثارة حبه بكل الطرق وهتك عرض غموضه ، حتى يستجيب، فإن لم يستجب، تتحول وقتئذ لقنبلة ضجر مشحونة بالغضب، وعندما تغضب الشيطلائكية تنزف من الداخل، وعليه علاج ما نزف منها فورًا قبل أن يفقد روحها للأبد.

"قصة النقص في حياة الشيطلائكيين، قصة يفخرون بوجودها داخلهم دائمًا وباحتواء عوالمهم المحيطة ومشاعرهم على وقود النقص المحرك لهم.

"بل هم يفخرون أنهم ناقصون ناقصوا السعادة، ناقصوا العقل، لكنهم ليسوا بناقصي قلوب أبدًا؛ قلوبهم الوحيدة التي إن نقصت فقدوا أنفسهم. هو

النقص المنبعث منا يعتلينا ويتحكم بنا ويسيطر ويتجبر، ويصل لذرواتنا. إنه النقص الجميل.

"ابتسم أيها الناقص إذًا، ولا تسرع بالاكتمال؛ حتى لا تنتهي سريعًا.

"حبيبي،

"يترنح مؤشر روحك نحو الملائكية أكثر، يلزمك بعض النقص لتكتمل، وأنا النقص الذي سيكملك، فدعنا نتكامل.

"حبيبي،

"عندما أتحدث معك، انظر في عيني، واسألني: من أين أتيتِ يافاتنتي بهذا الثغر؟

"ثم تظاهر بأني لم أخبرك.

"إننا نتنفس النقص برئةٍ واحدة، تنفسني برئتيك إذًا لتكتمل، ولينصهر حبنا الذي جمده الغياب، وليروينا كلما ظمئنا.

"بربك ألستَ عطشان إليَّ؟

"حبيبي، أيها الملائكي ذو القميص الأبيض، والحذاء الأبيض، كبياض قلبك، ونقاء سريرتك، دعني أحوّلك إلى شيطلائكي!

"دعني أغويك بي! إنها الغواية الجميلة التي أفقدت حواء آدم الجنة بسببها. لولاها ما أتينا نحن في حيز الوجود. أليس كذلك؟!

"ربما ما كنا أتينا إن سكن أبوانا الجنة، وربما كنا أتينا بغواية جديدة داخل الجنة. وبين ربما وربما تكثر الاحتمالات، والنتيجة أن الغواية دائما هي نقطة التغيير.

"دائمًا ينتج عن الغواية شيء يجعلنا نلهث إلى مالانهاية؛ لنتحرك ونخترق كل إيقاعات الحياة، المهم: ألا نظل على إيقاع واحد.

"في كل مرة تتعرض فيها لإغراءات الحياة وتُخير بين أمرين، تجد نفسك مجذوبًا نحو الحل الممتع، وإن كان يتعارض مع الملائكية التي بداخلك والتي تظهر

على وسادتك ليلاً في صورة ضمير لا يمل الرقص على أوجاعك، هذا الضمير هو ملائكي صغير، هو جنين ملائكيتك الذي يحتلك، يتغذى من مشيمةِ الفطرة التي ولدت عليها، ورغم أن مشيمة الفطرة هذه موجودة وتنبض في الليل بالذات، إلا أنها قد تتضاءل يومًا بعد يوم؛ نتيجة كل العوالم التي تحيط بك، والتي تحولك في النهاية إلى شيطلائكي. لا لن أصنفك على أنك إنسان به الخير والشر معًا، بل سأصنفك هنا بالشيطلائكي ولي أسبابي".

****

سأرد عليكِ بكلمة واحدة على كل هذه المحاولات في جعله يشبهكِ ياجميلة:

"لن تستطيعي تغييره مهما حاولتِ. سأعتبر ما قرأته بقلمك موجّهًا لي أنا؛ فأنا الذي سيقول لك من أين أتيتِ يافاتنتي بهذا الثغر؟ تابعي ياحروفها بالامتزاج أمامي فأنا القارئ العاشق!".

* * *

العملاق المختل

"أكنت تعلم أن بداخل هذا الجسد الصغير الهش عملاقًا أرعن؟

"دعني أعترف لك بأن الشيطلائكيين ممتلئون بالحي ، هناك عملاق كبير يسكن داخلهم يُسمى المُختل، هذا العملاق المختل لا يكاد يثبت على شيء أبدًا، إنه متغير ومتحول ومتقلب طوال الوقت، هناك جرم يجب أن يُرتكب حتى يستقر هذا المختل، يجب أن يحدث شيء عكس الفطرة ليرتاح، هناك غريزة تريد الحصول على شهوةٍ ما بجشع، وبشكل أكثر من الذي تحتاجه، هذا العملاق سيدمر كل شيء إن لم يفعل ما يريد أن يفعله فورا. لم يخرج عملاقي هذا بعد، فهو أضخم بكثير من أن يخرج من فوهة لامبالاتي الصغيرة، هو بحاجة إلى لامبالاة أكبر، وإلى خدر كبير يتبعه ترنح، وفي نهاية الرحلة إلى الهدف الذي قد تقوم قيامة روحي من أجله، نكتشف أنه لاشيء، لاشيء يستحق كل هذه اللهفة، وكل هذه الشهوة في الحياة، إنه منقوص، ولا أدرى ما الناقص فيه، ربما لا إثارة فيه، والإثارة وحدها ظهرت في تلك الثورة من أجله، الثورة التي قد تهدم كل شيء من أجل الحصول في النهاية على شيء نكتشف أنه لاشيء، كما حدث في ثورة يناير تمامًا، وأنا لم أصل لهذه المرحلة حتى الآن. وكما علمتنا بيروقراطية دولتنا، فإن للموظفين درجات في الحكومة، وأنا على الدرجة الرابعة من شيطلائكيتي، وهذا خبر جيد لك.

"أذكر صديقة شيطلائكية كانت ترافقني أيام الجامعة تُدعى ريهام. أذكر أني قابلتها آخر مرّة مصادفة في الإسكندرية، كانت شيطلائكية من الدرجة الأولى، كانت من الطراز الذي يمكن أن يسب شخصًا في الشارع لمجرد أنه ينظر إليها نظرةً لا تروق لها، فأنا بالنسبة لها شيطلائكية من الدرجة العاشرة.

"أرادت رفيقتي هذه أن تأكل الآن حواوشي، وإذا أرادت ذلك فيجب على الكرة الأرضية أن تستعد للدمار إن لم يأتيها الحواوشي الآن. وليس ذلك فقط، بل كانت تريد حواوشي مع زجاجة صودا الشعير الشهيرة وبنكهة التفاح الأخضر، كنا وقتها نسكن في مدينة جامعية للبنات في القاهرة كما تعلم، وكانت الساعة الثانية عشر منتصف الليل، وكانت غرفتنا في الدور الأول تطل على الشارع العام، وكانت قواعد المدينة تنص على أنه يمنع منعًا باتًّا طلب الطعام بعد الساعة العاشرة، وصديقتي كانت ستموت وتأكل الحواوشي، كانت تذاكر لامتحانات منتصف العام، وكانت تمسك بالقلم والكتاب، لكن عينيها لم تكونا تستقران في الكتاب، وكأنها في صراع الآن داخل عقلها الشارد مع قوانين المدينة الجامعية، رأيتها تلعن المدينة وهي شاردة، ثم قذفت بالقلم والكتاب، وقالت: "وجدتها". أمسكت هاتفها المحمول، وطلبت المطعم الذي يقوم بصنع الحواوشي الذي اعتادت أن تاكله...

- مرحبًا. أنا أسكن في المدينة الجامعية التي تقع خلف مطعمكم. هل من الممكن أن تحضروا لنا أربعة أرغفة من الحواوشي وزجاجتين من الشعير؟

- لكن هل سيسمحون لمن سيوصل طلبكم بالدخول واستقبال الطلب؟

- لا لن يدخل حامل الطلب إلى المدينة أساسًا، ولن يتحدث مع المشرفات حتى يسمحن له أو لا يسمحن.

- إذًا كيف ستحصلين على الطلب؟

- سأنزل لكم من الشبّاك سلة، أنا أسكن في الدور الأول، وفيها ثمن الطلب، ودعه يضع الطلب فيه.

- حسنًا سأرسله خلال نصف ساعة، لكن إن حدث أي شيء سيفر هاربًا.

- لا تقلق! لن يحدث شيء!

"كنت أراقبها وهي تتحدث، وكأنها تتفق في صفقة مخدرات أو ما شابه، إنها لا تهاب شيئاً، قذفت بالسلة في منتصف الشارع العام الذي لا تخلو منه السيارات ليلاً ولا نهارًا، وحصلت على الطلب وفقًا لرغبتها تمامًا، بل وزجاجات الشعير كانت مشبرة أيضًا.

"إن العملاق المختل الذي بداخلها قد تفلطح وأصبح أكثر قوة بعد عامين جمعتنافيهما الجامعة، كاد أن ينبثق من وجنتيها الحمراوتين، اللذين يتحدثان عن كمية الصخب التي يُحدثها داخلها هذا العملاق المختل، كانت لا تمل الشجار مع رفيقها الذي ترافقه مذ كانت في الثانية عشرة من العمر. ذات صفاء بيني وبينها حدثتني أنه عندما اكتشفت والدتها أنها على علاقة به، قطعت عنها سلك الهاتف الأرضي، وفرضت أمها عليها ألا تحدثه. ولأن رفيقتي هذه تكره القوانين، ضربت بقانون أمها عرض اللامبالاة، واشترت سلكًا جديدًا من مصروفها، وباتت تخرج ليلاً بعد نوم أمها، فتقوم بتوصيل سلك الهاتف وقت لم يكن الهاتف المحمول قد انتشر هذا الإنتشار الرهيب، كانت تحادث رفيقها وقتًا أطول بكثير من ذي قبل، حتى يشبع ذلك العملاق بداخلها ويتشبع بشهوة كسر القيود، وبعد عشرة أعوام أخرى أخبرتني بمغامراتها هذه متباهية بها جدًّا، وكأن كل مغامرة منها بمثابة وسام على صدرها. فجأةً خُطبت له، ولبست عباءة سوداء معلنة بذلك أنها تفضل الاحتشام، وبأن خطبتها له هي نهاية كل مغامراتها وأعلنت بالمستتر أن هذه هي نهاية الجموح الذي كان يقودها، لكن مازال العملاق موجودًا يسيطر على كل تصرفاتها، مازالت تنتهج الغوغائية والرغبة في الحصول على كل

شيء، وأفضل شيء، مقابل أن تفعل أي شيء. علمتُ ذلك عندما هاتفتني بعد زواجها به قائلة: "إياكِ والزواج! لقد اتضح أن الزواج الذي كنا نظنه أجمل شيء في الدنيا، ونتمدد أرضًا أنا واياكِ نراقب النجوم ونحلم برجل يحتوينا، اتضح أن الزواج شيء عادي جدًّا، بل أقل من العادي، أنتِ فقط المطالبة باحتوائه، إن لم تفعلي فأنتِ المقصرة، وإن اعترضتي سيقيم مجتمعكِ عليكِ الحد. إياكِ أن تتزوجي حتى وإن كان الزواج عن حب"!

"أتعلم! كنا وقتها على وشك أن نُخطب، لكن أرعبتني جملتها الأخيرة؛ لأنها تعلم مغامراتنا معًا، وتعرفني جيدًا، وتعرفك، وتعرف معيار ما وصل له حبنا على مقياس العشق، كنت أيام الجامعة مختلفًا عن الآن. كنت تقابلني بلهفة. أتذكر أنك مرة تقاتلت لأجلي، وقد كنتُ قطعت عهدًا أني سأتزوج الرجل الذي يُقاتل لأجلي.

"كعادتي تمردت على نصيحة ريهام، وتزوجتك استنادًا على درجة العشق التي أُصبنا بها معًا وقتئذٍ.

"كيف أبتعد عن روحي كل هذا الحد، ولا أسعى للفرصة الوحيدة التي تقربنا جسديًّا في مجتمعنا وهي الزواج؟ تزوجتك؛ لتندمج أرواحنا أكثر قبل أجسادنا، كنت أظن أن الإكتمال قادم بتعاشق أرواحنا بأجسادنا في اللحظات الحميمية. لم أكن أعلم أن الزواج يقرب الأجساد ويبعد الأرواح، أين هربتْ مني روحك؟ أين لحظة الاكتمال التي كنا ننتظرها تحت مظلات مقاعد رصيف الجامعة؟

"أكانت رسالة صديقتي التي عصيتها صحيحةً؟

"كانت هذه هي آخر رسالة صوتية هاتفية سمعتها منها، قبل أن ألقاها مصادفة وتلومني على عدم إخبارها بأمرِ خطبتنا، بعدها تزوجت أنا، ضاربةً بنصيحتها وجه عملاقها المختل، وأبعدتني الحياة عنها، لكني بعدها أدركت أن الشيطلائكيين مهما حاولوا أن يعدلوا من وجهتهم ويديروا الدفة إلى الناحية

المعاكسة، فإن هذا الأمر بالنسبة لهم مستحيل؛ لأن العملاق المختل بداخلهم لا يفرغ من الحيل التي يدفعهم بها للتحرر من كل قيد يفرض عليهم، وهذا هو التفسير الوحيد الذي فسرت به رفضها لقيد الزواج، لقد قيدها الزواج في إلزامات ما، وهي الآن لا تستطيع أن تتمرد عليها ولا أن تترك المجال لعملاقها المختل كالسابق ليتنفس، ربما ندمت المسكينة على خضوعها لنظام اجتماعي كالزواج، ولا أدري ما حدث بعد أن تزوجت، لكني أضع إحتمالات كبيرة أن تكون قد تحررت بطلاق؛ فالزواج يحكمه المجتمع بأنماط ثابتة.

"المجتمع يُعادي الشيطلائكيين غالبًا، لا يتفهمهم، وهم يعادونه تلقائيًّا دون أن يعلموا أن بينهم وبينه خصومة ربما اكتشفت ذلك في وقت متأخر؛ لأن الشيطلائكيين لا يتزوجون إلا بالأرواح، ومفهوم الزواج في المجتمع هو زواج أجساد؛ لأن العملاق المختل داخل الشيطلائكيين نَهِم، يريد المزيد من كل شيء،

المزيد من الحب وقت يشعر الطرف الآخر أنه أتم ما عليه بتقديم كل أفعال الحب من وفاء بعهد الزواج، المزيد من الفَقد وقت يشعر الطرف الآخر أنه قدّم نفسه في حين أنه ينسى تقديم روحه، المزيد من الشوق وقت تنظر للطرف الآخر في عينيه فلا تجد تلك اللهفة المشتعلة كما في البدايات أنت ترى الآن اللامبالاة فيهما. ولأن هذه الأمور تمثل منحنيات متذبذبة على خط الحياة؛ فهي أيضًا تمثل عدم ثبات واستقرار هذا العملاق هناك تذبذب بين ثبات النمط الحياتي وبين ما يحدث داخلك، تناقض غير معلن تستشعره، وهذا يتنافى تمامًا مع ثبات منحنى الزواج؛ لأن الزواج يعني الثبات على وتيرة واحدة. والشيطلائكيون لا يفلح لهم إلا الزواج الذي يقعون في الحب فيه أكثر من مرة.

"أنا الآن صامتةٌ؛ لأني كنت أنوي الهروب منك، وهربت وغبت رغمًا عني؛ لأني فقدت الأمل في أن تلْعَق الماضي ببعض من الحنين، وتهديني بوحًا يشعرني أني مازلتُ على ذمة قلبك. لكن لم يحدث. لذلك هربت منك. كنت أرغب أن تستعيدني بنفسك دون أن أخبرك أني سأهرب، لعبت معك لعبة الغميضة دون أن تعلم، والمفاجأة أنك لا تبحث عني، هربت منك لألف حياة عشتها دونك، تركتني أرحل ولم تجتذبني إليك، ألهذا الحد كان سهلاً عليك أن تفقدني؟ إن قالت لك الحياة سآخذها منك، تتنازل عني لها دون جذبي من بين براثنها؟ ثم تلقي باللوم عليّ؟ قائلاً: ولماذا تتركين نفسكِ لها؟ بربك ما الحل حين يُسلب منك شيءٌ وتظل صامتًا، سوى أن السارق يستبيحه له. وهذا ما حدث. ولقد جدت في خيالي ألف حياة!

"مرة أخرى: تظاهر بأني لم أخبرك بأن...

"فتّش عني داخل قلبك، وحاول أن تستعيدني حين أغيب بروحي عنك".

****

ربما صدمتي كانت كبيرة كشيطان طيب عندما علمت أن ريهام كانت تأكل معها، تشرب معها، وتنام معها في نفس الغرفة. ألهذا الحدّ بلغت ريهام من الشيطانية حد أن تنكر كل تلك الأيام، وتستعين بشيطانٍ لعمل سحر أسود لكِ؟ لقد تعدّت أن تكون إنسانة أو حتى شيطلائكية. آه ياميريهان آه! لكن، حتى كون شيطانًا عادلا، عليّ أن أعترف أنها كانت تريدُ جمال... وأنا الذي طمعتُ بك، ولا أدري كم من الوقت يلزمني لأحصل على قُبلة منكِ... لعقةٍ من رقبتكِ وأنتِ في حضن النوم؟ آه ياميريهان آه!

إن الحسنة الوحيدة التي فعلتها ريهام كانت أن وضعتني في طريقكِ ياجميلتي. لم أكن أعلم أن طلاقها من زوجها أدى إلى أن تطمع في جمال. ألهذا الحد الذي كانت ترغب فيه بتناول الحواوشي؟!

تابعي ياحروفها! تابعي الرقص على كياني؛ لأفهم أكثر ما يدور بين تلافيف عقلها وقلبها!

*** * ***

كيمياء

"روحي الممتلئة بالصخب والأفكار المتشعبة كنتوئات ممتدة إلى ما وراء الأُفق، أخفيتها عنك باحتراف، كنت أعلم أنك لن تتحمل ضجيجي الداخلي، هدوؤك وصمتك السبب، أنت الهدوء في صورة رجل، لا أستطيع إفساد كيانك الهادئ بضجيجي، أو آكل أذنك بلساني، بالرغم أني لم أكف عن أكلها بشفتيّ في خيالي، كيف لم تفهم رغبتي الملحة في التحدث معك؟ ألم تكن تفهم أني كنت أعني أن تحاول الاستماع إلي؟ جعلت مني كيانًا صامتًا، يوشك أن ينجرف وراء أي موجة تُلبي رغباته النفسية والعاطفية والذاتية.

"لم أكن أدرك معنى ذلك في السابق، لم أكن أفهم هوية شيطلائكتي. كنتُ أنساقُ وراء العوالم المبهجة، الملونة، الجديدة، لكني لم أستطع يومًا الاندماج بها والتوافق معها؛ ربما لأني لا أمتلك المرونة، ولا أملك في جعبتي إلا لونين: الأبيض والأسود، فهما اللونان الأكثر تعبيرًا عن شيطلائكيتي. كنت أنتقي ما يناسبني لأكمل مساري، وبعد أن أبني بنيانًا أبيضَ بلبنات المعاناة والتعب، قد أهدمه في لحظات ضعف أو لحظات تهور بمطارق التهوّر السوداء وجرافات الاندفاع الذي يسكنني، فيضيع كل شيء بلاشيء. قد أُضحِّي بصبري وأوقات جَلَدي من أجل شيء أفتقده، أتعلم ماذا فقدت في رحلة هروبي منك؟ كنت قد فقدت ذاتي، فكان يجب علي أن أجدها أولاً ثم بعدها أبحث عنك فيها!

"هاتف يرّن. المتصل جمال بالطبع. والمكالمة اليومية المعتادة التي حفظت حروفها. أنا مللتها، ولا أدري كيف لم يملّ من تكرار نفس المكلمة يوميًّا؟! الزواج والغربة في خليط واحد يفعلان أكثر من ذلك.

- كيف الحال؟

- أنا بخير... بخير... بخير...

- هل من جديد؟

- لا جديد! لكني بدأت أفقد صبري! أعني أني فقدته!

- اصبري! الصبر حلو... هانت... هانت!

قاطعته فجأةً لكسر حاجز الملل المعتاد:

- ترى هل يمكن أن أجدني فيك كما السابق؟ هل يمكنك أن تبحث عني معي؟ هل لديك الصبر لذلك بعد أن نفد صبري؟

فأنا أكره الصبر، لست أنثاه المفضلة على الإطلاق، هذه الكراهية ليست من فراغ، لا طاقة لي بالصبر في مواجهة هذا الصخب الذي بداخلي. هو لا يظهر على وجهي الهادئ الرزين كما ينعته أصدقائي، والذي أحاول دائمًا موارة صخبي فيه عنك، لكنه موجود ويعلن لي عن ذاته كل ثانية، صخب فاضح قتل الصبر داخلي.

ردَّ هازئًا: ألف سلامة عليكِ! وماذا عليّ أن أفعل أكثر مما أفعل؟

همستُ لميرهان في عقلها: (إنه يكرر كلمة ألف سلامة عليكِ هازئًا بكِ. ألا يذكركِ هذا بنداءٍ قديم أتى لك سابقًا من المستقبل يحذرك من قسوته؟).

ردت عليه متأثّرة بنفثاتي المحرِّضة:

- من يتناول كل يوم نفس الطعام يزهده، وأنا تناولت الصبر حتى كرهتُ طعمه، وطردت مؤخرًا التأجيل من بيت حساباتي، فأصبحت لا أؤجل ولا أصبر ولا أنتظر، وعندما أُجبر على أي من هذه المكاريه، أترنح تعبًا وأبكي دون سبب، وكلما اتجه عمري صوب اللاشباب أكره الصبر أكثر. الحياة لا تصبر علينا، فكيف نصبر على مُضِيِ العمر دون أن نشعر بأشياء تسعدنا حولنا؟!

- وكيف لي أن أوفر لكِ الأشياء التي تسعدك دون مال؟ أنشحذُ معًا؟!

- لا. ليس المال وحده السعادة. أنا لم أعد أراني فيك. لم أعد أراني... ف ي ك!

مقدرش اقولك شكل حياتنا اللي انا عيزاها

اعرف لوحدك شكل حياتنا اللي انا عيزاها

****

كنت على كتفها أستمع لحديثها معه، وجاء في بالي أغنية لنانسي عجرم كنتُ أدندنها على حس حديث ميريهان الذي أثار بي شجنًا كاذبًا. فأنا لا أحزن لعذابها، بل أتلذذ به؛ لأنه سيعيدها لي في النهاية...

فيه حاجات تتحس ومتتقلش

وان جيت اطلبها انا مقدرش
ولو انت عملتها بعد ما
انا اطلبها يبقى مينفعش

مقدرش اقولك غير كل طريقة حبك ليا
او غِيْر عليّا ولا فجأني في مره وهاتلي هديه
املا عنيا

اعمل حاجه
انا مش عارفاها
مقدرش اقولك
حلي الدنيا في عينيّ
وغير فيَّ
لو مهما كنت
قريب مني وكنت قريب ليَّ
مقدرش اقولك شكل حياتنا اللي انا عيزاها
اعرف لوحدك شكل حياتنا اللي انا عيزاها

****

في صندوق الدردشة على فيس بوك:

جمال؟ عاش من شافك! أخيرًا أعرف حسابك بالصدفة كده؟

- مين؟
- ريهام ياندل! اختفيت إنت وميريهان واتجوزتوا وخبيتوا ع الكل!
- يااااااه! ريهام عبد القادر؟
- أيوه بعينها. اتغيرت أنا. صح؟ استنى هبعتلك صوري؟ فين أراضيك كده؟
- أنا متغرّب وطالع عيني.
- يامسكين! معلش هي دي ضريبة الجواز بقى. أنا بقى اتطلقت بدري بدري.
- ياشيخه؟!
- آه والله. كده أحسن بكتير؛ حياتي ارتاحت، وبقى معايا فلوس كتيرة جدًّا. تحب أسلفك؟!
- لا! شكرًا! شكرًا!

- طب إيه النظام؟ راجع مصر إمتى؟ ليك وحشه انتَ وميريهان طبعا. انت مخدتهاش معاك ليه؟ حامل ولا إيه؟

- لسه بدري على مصر وعلى الحمل. الظروف بتحكم!

- طيب. عامة أنا فاتحة الفيس طول اليوم. لو احتجت مني حاجه، احنا بردو عِشرة قديمه.

- متشكر جدًّا. أنا أغلب الوقت ف شغلي... مطحون!

- ياحرام! بجد زعلتني. لو محتاج فلوس بجد أنا معايا.

- متشكر جدًّا. أنا معايا فلوس بردو مش معنى إني متغرب يعني إني بكح تراب!

- مقصدش طبعًا ياجمال دا انت سيد الرجاله. دا البنات كانت هتموت عليك ف الكلية فاكر؟ بس انت بقى معرفش ايه كان عاجبك في إلهة الكآبة ميريهان. أنا بهزر. إوعى تكون زعلت. دي ميريهان دي حبيبتي، وعِشرة عمر.

- أنا عارف إنك بتحبي الهزار زيي. في الحقيقة ميريهان بدأت تزهق، وعايزه تعيش معايا هنا، ولأنا لسه أوضاعي مستقرتش.

- ليه كده؟ المفروض إنها تصبر وتستحمل. هي دلوعة طول عمرها!

- أهو أنا بطلب منها تصبر. بس واضح إنها مصممة المرادي. وحقيقي أنا مش عارف مفروض أعمل إيه؟

- ولا يهمك. يمكن خير. طلقها، وارتاح، وريحها. بهزر بهزر. إنتَ عارف إن هزاري شرس حبتين. مش كده ولا إيه؟

- ياستي، هزري؛ محدش واخد منها حاجه.

****

كان عليّ أن أرسل هذه المحادثة لميريهان بأي طريقة. أرسلتها في حلم. لقد لعبت الأقدار هنا دور البطل وعليّ استغلالها جيدًا. ريهام لم تكتف بالسحر الأسود، بل صنعت بنفسها سحرًا خاصًّا؛ لتسحر به جمال، إنها تحاول إغواءه بالطرق التي يفهمها ويحبها. ومن العيب أن تتغلب شيطانة إنسٍ كريهام على شيطان مخضرم مثلي. لكني بدأت أشك في قدراتي بعدما تأثرت ببياض ميريهان الذي لطختُه ببعض سوادي. عامة إن لم أرسل هذه المحادثة لميريهان، فسوف تقوم ريهام بفعلها بطريقةٍ أو بأخرى.

****

كانت تحلم بحلمٍ داخل حلم، وجدته في منامها مع أخرى، استيقظت وقلبها يخفق موجوعًا بشدة، لم تجده جوارها في سرير الحلم، سمعت صوت الماء، إنه في الخلاء مُذ ساعة ومعه هاتفه النقال، استيقظت من نومها مذعورة. دقت عليه ليتصل بها. كعادته استجاب...

- جمال لقد حلمت أنك في الخلاء، ومعك الهاتف النقال!
- فعلاً لقد كنت في الخلاء. ماهذا الحدس الغريب؟!
- ولكنك لم تكن ستحادثني أنا!

اضطرب جمال، ولكنه لملم شفتيه، وقال:

- ومن سأحادث غيرك؟

****

المكالمة المملة اليومية، اليوم لها طابع يبشر بالخير لي. صوتٌ عالٍ ومشاجرات. الله... الله... ارتفعي أكثر أيتها الخلافات حتى تصلي عنان السماء. أريدها لي... ستكون لي... دون أن يكون في قلبها غيري. اشتعلي. اشتعلي. بخور... ونار...

****

ميريهان: أنا متاكدة أن تلك المحادثة بينك وبين ريهام لم تكن الأولى. لقد كنت أظن أنها في قائمة أصدقائك؛ لأنها متزوجة ولا ضير منها. أو أنه لا حديث بينك وبينها.. مجرد زميلة جامعة قديمة.

- وهذا فعلاً ما حدث. ما ذنبي أنها حدثتني؟ ما ذنبي أنها تطلقت؟ هي من حدثتني!

- لا! ليس هذا ما حدث. أخبرني بالحقيقة: ألاتزال تحبني؟

- أَتَشُكِّيْنَ؟

- لا أشك. لكن الأمر أصبح مرهقًا لي نفسيًّا. كُفَّ عن الغياب. أصبحت أشعر أنك حتى لو تواجدت فعليًّا معي، فستكون أيضًا في عداد الغائبين.

- أنتِ إذًا من قلّ حبي داخلك. وها أنتِ تعترفين؟

- أرجوك أنا لا أتهمك بشيء. أنا دائمًا في وضع المتهم عندك. أرجوك افهمني. أُشعر بي!

لقد أغلق الخط!

هناك شيء يجذبه نحوه.. وشيء آخر يجذبني من الناحية الأخرى المعاكسة. نحن نفترق وجدانيًّا. بدأت أدرك ذلك الآن... الآن...

تُرى هل كنت مندفعةً معه؟ أليس من حقي أن أعرف من أكون داخله بعد أن نهشه الغياب؟ أعلم أني مندفعة، لكني لست مخطئة. لا أدرى متى أكف عن لوم نفسي في كل مرة أحادثه فيها. أنا أنثى الاندفاع البطيء. أُنجبت منه الاندفاعية وثلاث أبناء من الضجر، الأولـ البحث عن ذاتي في عوالم أخرى. والثانيـ الانتشاء بخلق فن في لوحة أو حرف بأبجديات الخيال. والثالثـ استكشاف أرواح أخرى تتكامل معي. هؤلاء أبنائي من الضجر أربيهم كل يوم في لوحة أو أكتبهم بحبر خيالي، أو أسمعهم في أغنية. لا أحد يسألني كيف وصلت لهذه العلاقة مع الضجر؟ فاستسلامي له جعله يغتصبني. لماذا تركتَ الضجر يغتصبني ولم تتحرك لإنقاذي؟ وجدني الخيال خائرة القوى فضمني إليه، ضمد جراحي، وعالج ثغرات روحي، وعشقت العزلة في حضرته. أنجبت منه فنًّا وأدبًا وبعضًا من الثقة. بدأت أسبح في آفاق كنت غائبة عنها، غيابك وحده أتاحها لي. لا تلمني؛ فقد بذلت صبرًا كبيرًا، حتى تضاءل، وخرَّ راكعًا أمام باب الضجر. سلمني للضجر بيده وفر هاربًا، بحثت عن صبر جديد فلم أجد. إن الحياة لا تعطينا كمية أكبر من طاقتنا من الصبر، وقد استنفدتها كلها، ولم يعد بإمكاني أن أتسول الصبر من الحياة من جديد، فاستسلمت. الصبر هو من تخلى عني؛ فهو رجل فاضل، و،نا الرذيلة. عام وعامان من الصبر ولا جديد!

لم أحقق أحلامي في غيابك. كنت أتشبث بك أكثر منها.

مطالبَةٌ أنا بإفناءِ روحي بمنتهى التفاني وبكل الحب، دون ذرة "آهٍ" واحدة، وإلا فأنا "أنانية".

أنا رذيلة في نظر أحلامي، لذا فهي لا تقدم لي الهدايا، تقدمها فقط للعابرين من حولي، وتتركني دون أن ترسل لي مجرد التفاتة، أنظر إليها، أستجديها أن تهاديني بشيءٍ؛ لأني أستحق، لكنها توهب من لدنها الهدايا لغيري وتتركني. حتى الهدية الوحيدة الكبرى التي أهدتها لي على غفلة، كانت أنت. أهدتك لي، ثم أخذت

قلبك منك، وكأنها ندمت؛ لأنها فرطت فيك لي، ظللت أصدق أنها تمن عليّ بك دائمًا، تعايرني بك في لحظات رغبتي في التمرد على صمتك، فتذكرني كيف عانينا لنكون لنا، فأخضع لها من جديد، علّها تعيدك لي مرة أخرى. أنا حقًّا لا أعرف متى ترضى عني أحلامي، وتهاديني بشيءٍ من التحقق، أيمكنك أن تتحقق ونخرج ألسنتنا لتلك الأحلام معًا لإغاظتها؟

أعرف أن إجابتك ستكون: "ألف سلامة! ألف سلامة! ربنا يشفي!".

****

حالة طقسي اليوم:

سحب من الحزن تتجمد داخل مقلتي، تنبئُ بهطول دموع قريبًا.

تأهب الأوجاع بأعاصيرها للنيل من مدن الحنين الساحلية التي تسكنني.

ارتفاع الضغط الجوي داخل شرايين قلبي يهدد قلبي بالانفجار.

قوات حفظ الأمن داخلي ليست مدربة على إدارة الأزمة القادمة.

****

بحاجةٍ أنا إلى شيءٍ من السلام؛ لأعلن أني بخير ومازلت بخير، لكن هذا السلام الداخلي لا ولن يتوفر أبدًا في قرارة شيطلائكية مثلي. هذا ما أدركته بعد سنوات من الحياة في ذاتي. لا تنقذني من حروب ذاتي في الأغلب إلا دعوات أمي.

أذكر في بدايات مراهقتي، في اليوم الذي يسبق امتحان الكيمياء أنني فتحت الكتاب وشعرت كما لو أنني لم أفتح الكتاب طوال العام، شعرت أن كل ما فيه من معادلات ودروس قد ألغيت تمامًا من ذاكرتي، التصرف الطبيعي لأي إنسان في هذا الموقف، هو أن يحاول في الساعات الأخيرة استجماع أي معلومة، ومع أني

من النوع الذي يتحمل المسئولية وعنده حس عال بما لديه من التزامات، إلا أنني أحضرت الراديو، وأخذت أستمع لإذاعتي المفضلة، وغنيتُ ورقصتُ على القلق الذي أصابني والجلجلة بصاجات اللامبالاة، حتى لا أسمعلصوت الضمير الموجع الذي يحاول أن يعلو على صوت المسئولية.

وفي اليوم التالي، استيقظت ووجدت عقرب الساعة قد لدغني، فعندما تتفق كل الأشياء على خذلانك لأنك تحديتها، وقتها لن تستطيع أن تقاوم؛ فقد أفقت من النوم، ونظرت في الساعة، وإذا بها السابعة، لكن عندما تأهبت للخروج شعرت على عتبات باب المنزل بشيء مريب، سألت أحد المارة كم الساعة؟ فأخبرني أنها التاسعة تمامًا. لقد خذلتني ساعتي يوم الامتحان وأخرت ساعتين، هذا ما أدركته في اللحظات الأخيرة، لكن صوت الضمير الآن يعلو بشدة ولا أستطيع تجاهله، توترت وخفق قلبي بشدة. ولأن الشيطلائكيين أمثالي قد يغرقون في مثل هذه المواقف إن لم يرسل لهم الله دعوة صافية من أمهاتهن تنقذهن شطحاتهن وجنونهن وتحالف الأقدار ضدهن، لما نجوت من هذه اللدغة، فقد لحقت بي أمي بعد أن أدركت أن الساعة كانت متأخرة، وأسعفتني بسيارة خاصة استقلتها خصيصًا؛ لتحملني بسرعة جنونية إلى مدرستي؛ لتأدية الامتحان في موعده، ولحقته قبل أن يغلقوا اللجنة بثوان، وكأن المعلومات والمعادلات الكيميائية في عقلي كانت بحاجة إلى تحفيز بتسخين بوتقة كياني على لهيبِ توتري وضغط عصبي تسبب في فوران عقلي كالذي وضعت فيه؛ لتخرج تلك المعادلات من عقلي إلى الورق، والغريب أنني نجحت في الامتحان وبدرجة مرتفعة كدرجة ارتفاع حرارتي ساعة اكتشفت أني أصبحت في خطر.

هكذا هي حياتي، شطحات تنقذني من لعناتها دعوات أمي. فالهبات أحيانًا تسكنها لعنات.

****

تعبتُ ياأمّاهُ!

لماذا لم تخبريني بأني الحياة ستُرهقني؟

لماذا لم تخبريني بأشياءَ كثيرة

لماذا تركتِينني أكون كأنتِ

تولد بي الصرخة وتُكتمُ الآه

لماذا ياأماهُ؟

****

غفت ميريهان، وتطورت الغفوة لحلم رافقتها فيه، أخيرًا بدأت تتقبلني حلمًا. أمسكت يدها. بعثرتُها. لممتُها. قبّلتها. قلّبتها. كانت تتأوه بين يدي. وتظن أني حلمًا. لم تكن تعلم أني حقيقة لطالما انتظرتُ هذه اللحظات.

- عُد فورًا إلى أرضك!

- لماذا المهمة لم تنتهِ بعد؟!

- بل انتهت. لقد حصلت ريهام على جمال.

- ماذا؟ كيف ذلك؟

- استطاعت ريهام فعل ما لم تستطع أنت فعله منذ شهور.

- إذًا لماذا لجأت لنا منذ البداية؟

- لأنها كانت تظن أن السحر أسهل طريق للإيقاع برجل.

- لكني لا أستطيع ترك ميريهان؛ لقد بدأت تتقبلني في أحلامها.

- لقد انحدرت قدراتك الشيطانية للدرك الأسفل. أوشكت على أن تكون ملاكًا. أفكر في طردك من مستعمرتي؛ لم تعد صالحًا للعمل.

- أوافق بشدة.

- أنت تحلم!

- حررني وسأدفع لك المال.

ومن أين ستحضر لي المال وأنت عاجز حتى عن أداء المهمات التي يستطيع الأنسيون القيام بها؟! ستظل قصة تفوق ريهام عليك وصمة عارٍ في تاريخك!

- لن أطلب منك شيئًا أكثر من أن تقبل مني المال مقابل تحريري.

- هناك كنز مفقود في المنيا أريدك أن تعرف لي مكانه بالظبط. وسأنتظر ردك غدًا، وإن تم إخراجه فسأحررك. سأحرق التعويذة التي تربطك بي.

- غدًا يكون مكان الكنز عندك بخريطةٍ جوجلية لمقدار العمق المدفون فيه وبموقعه تحديدًا.

* * *

البحث عن التفاصيل

كان يجب عليّ أن أكتب اليوم عن حلم جميل. لأول مرة أشعر فيه أني أنثى على قيد الأنوثة، لقد قابلت الفارس الخفي في الحلم. ذلك الفارس الذي كان يعيش بداخلي وقت كنت طفلة، ومراهقة، وشابة. لقد عاد... عاد من جديد بعد أن غاب عني لمدة طويلة، ولكنه كان متشوقًا لي جدًّا. ناداني بالشيطلائكية كعادته. وكنت سعيدةً. وباح لي بالكثير الكثير من الكلام المباح وغير المباح.

أن أكون شيطلائكية هو أن أكره ذاتي في أعين نفسي وأحبها في أعين الآخرين. أنا لا أعشق ذاتي إلا عندما يراني أحدهم بعينيه، فيصب جمال ما رأى من روحي أو مظهري بين قوسي أُذني، كم تطربني كلمات الإطراء وتدفعني إلى التحليق كملائكية تجردت من شيطانتها التي لا تظهر إلا إذا انتقدها أحد، كم أطربني فارسي الخفي!

لماذا ياجمال تركتني ألجأ في حلمي إلى غيرك؟!

أَنظر إلى المرآة، أكتشف أن لي عينين جميلتين لكنك لم تحدثني عنهما، وثغرًا شهيًّا لم تحكِ لي قصة اشتهاءاتك له، وأنفًا متناسقًا وملامح وجهي كانت وظيفيته الوحيدة هي تتبع رائحتك دون وعي منك. أرسم كل هذه التفاصيل كل مرة في كل بورتريهاتي فلا يخلو أي بورتريه من تلك الملامح، حتى أخبرني الناس أن جميع بورتريهاتي تشبهني، وجميع بورتريهات من أرسمهم من الرجال تشبهك، ربما أردت إخبار ذاتي عني في لوحة، وعنك كانت تتحدث ملامحك التي رسمتها على اللوحات، كانت تتحدث أكثر منك، والأغاني أيضًا، بت أبحث عن نكهاتٍ جديدة في الأغاني، كنت أفتش عنك في أغنية جديدة، بمعانٍ براقة، كانت كلها محاولات مني للاستماع لأشياء تتحدث لغة مختلفة يهمس بها خيالي في قلبي، فيتدبرها عقلي، فتسمعها أذني، فتتجسد أنت لي. ورغم انعكاس جمالي على تلك الأشياء، إلا أن الذبول كان مسيطرًا عليّ. كان ينقص نبتتي ماؤك.

عشقتك، وأصبحت بعشقك عمياء تعد نجوم الليل، ترغب في معرفة دربك.

على كل حالٍ، عليك أن تعرف أن وجودي لا يتقبل عدمك، عليك التواجد فورًا حتى لا يتدفق مني الوجع إلى الخارج، حينها لن أستطيع الكفّ عن الصراخ، روحي الموجوعة يستقطبها شيء ما، قوى خفية تحاول انتشالها منك، لاحقها، عانقها، كفكف دموع روحي، ياروح الأنا. ياكيانًا ممتلئًا بتفاصيل أعشقها.

ألم تكن تعرف أنك روحي أنا؟ ومطاردتي لك ما هي إلا محاولة استرداد لروحٍ غائبة عني؟ أما أنا، فأنا لا أعجبني. لا تعجبني الأنا ككل. أجبني ولو في الحلم ياجمال. أنا أُسرق منك في الحلم وأنت لا تجيب! أجبني!

- تبعثري يا ميريهان فلن يُجيب.

- من؟

- فارسك.

- عانقني أرجوك.

- أناكِ المبعثرة إلى تفاصيل تعجبني، وتروق لي كل تفصيلة من هذه التفاصيل التي يختبئ الكثير منها تحت ذلك الكل، تمامًا كمناديل جدتكِ القديمة المطرزة والمحاطة بالدانتيل ، فتوظيفها كمناديل أضاع كل التفاصيل الجميلة التي تحتويها. وتوصيفك كزوجة لا يليق بكِ كجمال وصفكِ بعاشقة، وتوظيف جمال في عقلك لشيء أصبح ملكك، أضاع تفاصيله الجميلة التي كانت سببًا في لهفته عليك، وحبكِ له.

- أخشى أن نكون كهؤلاء الأشخاص الذين يمتلكون تفاصيل جميلة، لكنها إن اجتمعت في صورة فوتغرافية لا يظهرون بنفس جمال تلك التفاصيل وهي مستقلة ومتباعدة، أو على العكس إنهم من بعيد يكونون أجمل.

- يقولون: إن الملامح من بعيد أجمل؛ فالقرب منها يكشف ثغراتها.

- ترى أتراني أجمل من على بُعد أم من على قُرب؟ هل زادني الحلم قربًا من روحك، فقررتَ أن تقترب أكثر؟

اقترب أكثر من ثغرها، وقال:

- ربما استشعرت ذلك منك ولم أصارحك به، فسارت روحي على استحياء تخفض رأسها نحوكِ، ثم تخضع لها، أنا أعشقكِ!

- أشعر بهذا الشيء الذي لا أعلم هويته، ويحدثني في أحلامي أنك الوحيد الذي يمكنه أن أتكئ عليه ساعة سقوط دموعي. ربما سارت روحي صوب شيءٍ لا تراه ولكن تستشعره، ربما هو نوع جديد من العشق. لطالما كنت أسقط لاإراديًا في حب أي شيء يكتمل أمامي شكله مع مضمونه في خيالي، حتى إن كان قبيحًا في الواقع أو في الحقيقة، خيالي يجمله، يجعله يبرق أمام وجداني. قد أسقط في عشق مكان قديم؛ لأنه مليء بالتفاصيل التي لا تتكرر كثيرًا أمام عيني. فأنا كذلك الباب الخشبي العتيق الذي تقشر طلاؤه، فقد هويته الوظيفية في أنه باب قد يصد الريح؛ لأن نسمات الهواء الرقيقة قد تفتحه، لكنه مليء بالأشكال التي شكلتها تقشرات طلائه، رأيت في تلك التفاصيل التي صنعتها تقشرات الطلاء الأزرق الفاتح رسمة لوجه رجل عجوز يشبه جدي، الذي كان يرسل ابنة عمي لتشتري لي الجيلاتي ترحيبًا بحضوري لمنزله عندما كنت في الثالثة من عمري. رأيت أيضًا في تلك التشققات والتقشرات الطلائية، رسمة شفاه، قد يراها شخص غيري أنها قلب، لكنني أراها شفاهًا؛ لأني أعشق القُبلات؛ لأن القُبلة أنثى، أما القلب فهو ذكر. وأنا أنتمي جدًّا لتاء التأنيث، وتتحول نون النسوة إلى نون نشوة عندما أخضعها لقوانين الأنوثة الخاصة بي، كنشوتي باكتشاف تفاصيل هذا الباب، وكأني أفك طلاسم رجل غامض، وأترجمها بما أود سماعه منه.

- أيمكنكِ إذًا أن تفكّي شفراتي بقُبلة؟

قبّلته قُبلةً طويلةً.. بمقدار آلافِ السنين بمعيار الأحلام، ثم استطردت:

لقد كنتُ أراك في تلك التفاصيل، قرأتك وأكثر على جبين ذلك الباب العتيق، إنه يغريني جدًّا من على بعد كأنت، يثيرني، يجعل رغبتي كبيرة في أن أُحضر فرشاتي، وأؤكد بالألوان على تلك التفاصيل؛ ليتمكن الجميع من مشاهدتها مثلي عندما يسقط الضوء عليها كما يسقط على عنقك في الظلام، وقعتُ في عشق باب خشبي عتيق؛ لأني قرأت تفاصيلك عليه، عليه وجه جدي وشفاه تشتهي قُبلة، أنبه الغافلين أن هناك جمالاً من النوع الذي لا يقاوم محيط بهم، وهم غارقون في البكاء والتعاسة والركض خلف البؤس. كما أُنبّه ذاتي (كم أنت شهي!) لكن صمتك يأسرك.

- أنا لست صامتًا، فلطالما كنت أراقبك، ومراقبتك تستدعي أن أكون صامتًا في حضرة بهائك وبطئك المغري.

- يااااه! ألهذا الحدّ تعرفني؟

- بما يفوق تصوراتك. حتى الأماكن التي ترتاحين فيها أعرفها شبرًا شبرًا وأنتِ دافئة كأماكنك. فالأماكن كالبشر تمامًا؛ منها ما يحمل رائحةً وطلاسمَ وشفراتٍ ودفئًا، ويحتاج إلى أن يكتشفها أحد ويظهر تفاصيلها، كحاجتي إلى دفئك في برد غيابك. ومنها البارد المثير للخوف الذي لا تفاصيل فيه ولا دفء، كتلك الوجوه التي تملأ المجلات، ويقف أصحابها بمنتهى التصنع أمام الكاميرات على السجادات الحمراء، راغبين أن تلتقط الكاميرات صورًا لأوجههم المزيفة وصدورهم المحشوة بالسيليكون، وملامحها التي ضاعت بين مشارط جراحي التجميل، وجوهٌ مستهلكة عليها غبرة كعصرهم الاستهلاكي، ينتج جرّاحوا التجميل من الوجه الواحد ألف نسخة، كما تنتج المصانع المعلبات، وجوه معلبة صُمِّمَت خصيصًا؛ لتشتعل فترة ثم تنطفئ كصيحات أي منتج، لها صلاحية ولها تاريخ انتهاء، يرشون الزمن بقبلات هوائية سليكونية منتفخة أمام الكاميرات؛ كي

يبقي رواجهم، هذه الوجوه بالنسبة لي منتهية منذ بدئها، بدافع الغيرة على الطبيعة الذي يشتعل بداخلي كلما رأيت وجه ممثلة محشوًّا بالسيليكون.

- أتعلم يافارسي. كان جمال يدقق كثيرًا في النظر إليهن، وكنت أتعجب أنه لا يراني جميلة، ولا يخبرني بذلك بينما أراه يحدق النظر فيهن. منذ العام 2004 وأنا أنتظر فساد السيليكون داخل وجهها، وأُطمئِن ذاتي أن اختراق قوانين الطبيعة الرباني سينتج عنه بالتأكيد شيخوخة كبيرة وقريبة لذلك الوجه. وسأنتظر تلك الوجوه التي ستشيخ قريبًا وأشمت فيها، وأقول لك وأنت الذي تعجبك ملامح المغنية التي نسخ الأطباء ملامحها في أكثر من وجه: انظر! لقد شاخت بسرعة! انظر ياجمال لتلك المغنية التي اعوجَّ فمها؛ لانها قررت أن تغير تفاصيل الطبيعة في وجهها! إنهن جميعًا مجرد فقاقيع سرعان ما ستنفقئ! سرعان ما سيزول الزيف وتظهر لعنة الطبيعة عليهن.

- كُفِّي عن الحديث عن جمال ونظرته للأشياء! فمن لم يقدّر نعمة وجود وجه كوجهك في حياته لينعم به، لا ينبغي أن نذكره ونفسد بذكره حديثنا العذب. أنتِ حسنائي الجميلة التي تشبه دمية أميرة هاربة من زمنٍ قديم.

- أتعلم أن هذا أجمل تشبيه شبهني به أحد في حياتي على الإطلاق يافارس؟

- أنتِ أجمل أميرة هربت من الزمن القديم، وجاءت هنا فلم تجد من يقدس ملامحها غيري؛ لأني عشت جميع العصور. إن حسناوات الزمن الجميل والماضي الدافئ أجمل من معلبات هذا الزمن ألف مرة، حتى بعد أن أصبحن عجوزات عاجزات، فلإن كل خط تشقه التجاعيد في وجوههن لهو وسام شرف يثبت عذرية وجهها وبراءته من مشرط جراح التجميل.

- معك أشعر أني أميرة هاربة من ذلك الزمن، تاركة قفازاتي الساتانية في آلة الزمن التي أحضرتني لزمانك، تفاؤلاً بقُبلة على يدي لا يردعها حائلٌ ساتاني أسود كقفازاتي أو كحزني، قُبلة يضعها الرجل الوحيد الذي يعلم أني أميرة حقيقية... فكنت أنت!

- أنا الفرحُ الحزين القابع على قارعة طريق عينيكِ اللتين لا تملان التثاؤب حين ترياني ياشيطلائكية.

- تحبني فقط كشيطلائكية؟

- أنتِ فقط شيطلائكية. لا يوجد منكِ أشكالٌ أخرى.

- ومن جعلني شيطلائكية؟

- أنا!

- ولماذا لست موجودًا في الواقع؟ لماذا أنت حلم؟

- لو تواجدت في الواقع، هل كنتِ ستهربين معي؟

- لا أعلم! لكني متأكدة أنني سأفقدك نهائيًا، إن لم أسقط في حبك عشرين مرة في الأسبوع. لا أستطيع أن أقرر بخصوص الواقع شيئًا؛ لأني الآن على ذمة الحلم، لكن أنا شديدة الانجذاب لمن يفك شفراتي بصوت مرتفع؛ لأني أفك شفرات كل شيء، لكن في الخفاء وبمنتهى السرية و بطريقة مضمرة داخلي، ولا أبوح بتلك التفاصيل إلا إذا أردت أن أقرّب أحدهم مني، فتلك التفاصيل لا يسمعها إلا صوت عقلي، كنت بحاجة دائمًا إلى أن يخبرني أحدهم أنني أملك تفاصيل جميلة، أنا بحاجة دائما إلى ذلك الشخص الذي يمكنه الإمساك بخريطتي واستخراج تفاصيلي منها، صانعًا منها منظومة أحرف يلقيها على مسامعي كل ليلة، أبحث عن ذلك الشخص في كل شيء حولي، في كتاب، أو أغنية، أو لوحة، على مرآة بشرية أرى فيها نفسي.

- ورأيتِ نفسك بي الآن؟

- نعم. هذا يحدث فعلاً. شعورٌ يسعدني حتى لو في الحلم. لكن على مستوى الواقع كنت أنتظر أن أكون أُمًّا؛ لأنعم بنعمة أن يكون هناك مرآة صغيرة تمشي على الأرض تشبهني وتشبه جمال، مرآة حيّة تدفعني إلى الكفّ عن إدمانِ المرايا، لاأاعتقد أن هناك مرآة بشرية ترى فيها نفسك فعليًا أعظم من طفلك؛ فهي نتاج مشترك ومتكامل لكل تفاصيل الحُب. يمكنني بطفل أن أحظى بأجمل مرآة تعكس روحي ممتزجة بروح جمال، إبداع رباني مزيج من عينيَّ وعينيك في خليط وسطي يجمع بين شيطلائكيتي ولاشيطلائكيةِ جمال، بين هدوئه وصخبي الصامت، بين حبه لأفلام الحركة وحبي للأفلام الرومانسية، بين عشقه للنظام وعشقي للفوضى.

- مرةً أخرى تتحدثين عن جمال؟

- لا أستطيع التوقف عن الحديث عنه لك. أنت لي أكثر من عاشق يافارس. أنت لي وطن وجمال يملك مني الكثي... أعوام مضت معه... إن تلك التكاملية التي بيني وبين جمال هي سر تجاذبنا في وقت من الأوقات. لكنها بدأت تتلاشى؛ لأنها زادت حد أن وصلت للاختلاف التام لدرجة عدم التقبّل. الغياب صنع ذلك. فلم يكن من العدل أن يطالبني بالتخلي عن شيطلائكيتي وتناقضاتي حتى لا نتنافر بالتشابه، فلا التشابه التام يحقق المعادلة المستحيلة، ولا الاختلاف التام يحققها. فشيطلائكيتي تخلق دائمًا معه منحنيات القرب والبُعد التي حفظت للحب توازنه طيلة الأعوام الماضية وأبقته طازجًا، طازجًا حتى جمّده البُعد الفعلي والبُعد الروحاني.

- أنا لا أريدك أن تتحدثي عنه؛ لأنه لم يعد لكِ ياميريهان.

- ماذا تقصد يافارس؟!

- ألم تكتشفي أنه يحادث ريهام؟!

- نعم. وصدقته حين أخبرني أنها هي التي تحادثه، وكانت مرّةً واحدةً فقط، وهو كان يصدها.

- جمال يكذب.

- لا!

- نعم!

- لا!

- لا تكذب عليّ؛ لتأخذني منه. وريهام صديقة مخلصة لا يمكن أن تفعل ذلك.

- أنتِ بالفعل كنتِ لي من قبل أن تعرفي أن جمال يخونك. أنسيتِ؟! لا مصلحة لي سوى أني أريد تحررك كليًّا منه. أنا الأولى بكِ. أنا عاشقكِ الأول والأخير. لا تقلقي أنتِ معي وسأضمك بشدة. خيانته لك لا تعني أنكِ ضحية. لا تهدري القادم من عمرك في انتظاره؛ لأن هناك قوى أكبر منكِ ومنه اجتمعت على تفريقكما. قوى خفيّة لا تدركينها تتحكم به وبكِ.

- لا! لا!

هذا لم يكن مجرد حلم، لقد كان رسالة تشي بما يخفيه لها الواقع من فارسٍ من أصلٍ شيطاني طيب. صدمة عصبية نفسية حادّة سببها لها حلم، ألهذا الحدّ كانت هشّة؟!

****

إحداثيات حياتي كلها ينقصها البعد الرابع

ذلك البُعد الذي ينهشنا ويسرق منا بعضنا البعض

ويهدينا لبُعْدٍ بعيدٍ لا ندركه

وتتعامد علينا أعمدة تنصف آمالنا في إحداث لقاءاتنا

ونظل مجاهيل في عوالم تربع الألم وتكعب البؤس

وتضرب الحزن في مئة

****

- لقد تم إرسال خريطة بموقع الكنز. هل وصلتك ياسيدي؟
- نعم. وقد استخرجوه وأخذت نصيبي. وأنت هل أخذت نصيبك؟
- لا لم آخذه بعد. لم تحررني بعد.
- سأحررك قريبًا من كل القيود يا... يافارس!

****

لم تفق من صدمتها إلا بعد شهر من النوم المتتابع والغياب المتعمد عن العالم، مغيبة، متقندسة، متكورة داخل قوقعة الفراش. وكنت ألقاها كل حلم، كانت تهرب من واقعها لي... لي وحدي، كنا نمارس معًا كل أنواع العشق الذي لم تعرفه يومًا، أخذتها لكل العوالم. كانت محلّقة معي.

دخلت أمّها عليها، تكشف الغطاء بحسم:

- هذا حرامٌ. لماذا تفعلين بنفسك هكذا؟! زوجك قلق عليكِ أفيقي وردي عليه! إلى متى سيستمر هذا التجاهل وهذا الانزواء؟!

- سيبيني ياماما. أنا قلت محدش يصحيني!

- ياميريهان، دي مش طريقة حياة. هو الراجل عملك ايه ياضنايا؟! دا مش مخليكي عايزة حاجه، و...

- ياماما، بسسسس بسسسس! موداناش ف داهيه إلا طريقة تفكير جيلكم دي. بس بقى نمطيه! بس بقى انا تعبت تعبت! بس بس!

- لأ! بجد انتِ بقيتي مش طبيعيه! انا هجيب الشيخ أبو الوفا يرقيكِ.

- لااااااااااااا إيّاكِ. هطرده من البيت! وياويلك!

- انتِ بتكلميني أنا كده ياميريهان؟! بتزعقي لأمك؟! انتِ يابنت انتِ مش طبيعيه، وحالك بيسوء! انا تعبانه علشانك! انا خايفه تكوني محسوده، هجيب الراجل يرقيكِ.

- سيبيني ياماما واخرجي. هعيد وازيد تاني ف الكلام؟!

- ربنا يهديكِ يابنتي. ربنا يهديكِ ويبعد عنك الشيطان!

****

- ها أنا أراها تستيقظ في الليل كحال بني شيطان، تمسك بالكتاب المزركش، وتكتب

عن فصيلة دم جديدة.

فصيلة الدم "شين"

"لقد اعتنقتُ الشيطلائكية باعتبارها دينًا قديمًا كان داخلي دون أن أعلم، دعاني إليه نبيٌّ احتل قلبي، شعرت أني حضرت كل الأزمنة والعصور دون أن تغزوني التجاعي،د كنت حينها في أحسن تقويم نوراني، خارج نطاق الشيئية، بدون ثغرات ولا سوءات، لقد خلقت في حياة عُليا قبل أن أعيش معكم الدنيا، كانت كل الأشياء تحت يدي، حتى دخل الشيطان لجسدي من ثغرة السوءة وجعلني أتمرد، ثم رددت معكم إلى أسفل سافلين، هناك موتتان في حياتكم ياآدميون.

"أعلم أن الكثيرين قد ينتقدون إن قرأوا لي هذا. لكن حذارّ إيّاكم أن تنتقدوا الشيطلائكيين، أو توجهوا إليهم التُّهم أو الهجمات اللسانية اللاذعة، أنتم بهذه الطريقة تقتلون أنفسكم داخلهم حتى لو لم يظهروا لكم ذلك، إن هذا يعني أنكم تحفرون قبور علاقتكم معهم. معظم البشر يكرهون من ينتقدهم، ولا يتقبلون الهجوم ولا يفرقون بين النقد والهجوم أو حتى إعطاء النصح والتقويم. لكنك لن تروق لشيطلائكي أبدًا عندما تقدم له نصيحةً على حساب كبريائه، ستبدو وكأنك تجمّل الهجوم عليه، قد لا يرد ولا يتفاعل معك، لكنه يشحن نفسه بتفاعلات تظهر نتائجها فيما بعد، تختلف ردود الأفعال إن كنت توجه نصحك أو نقدك لشيطلائكية أنثى أو شيطلائكي ذكر؛ فالذكر قد يهاجمك، والأنثى قد تبكي أو تصمت، لكن سترد بالتأكيد فيما بعد، بطريقتها الخاصة، إن لم تَصْفُ الأجواء بينكما، فلن تعجبك ردود أفعالها المستقبلية أبدًا.

"أعرف رجلاً شيطلائكيًّا، كان يُحصي لزوجته الأخطاء ولا يحاسبها عليها، إنما ليذكرها بها فقط وقت خطئه، فلا تجرؤ على محاسبته ببنت شفةٍ على ذنبه الذي قد يكون أضعاف أضعاف مقدار ذنبها؛ لأنه استطاع أن يوهمها بمدى فداحة أخطائها بالرغم أنها بسيطة، لكنه استطاع أن يصمم من أخطائها مفاتيح مستقبلية لأخطائه هو، فلا تقوَى هي على محاكمته أو حتى معاتبته، إنه يجبرها على الصمت؛ حتى لا تنتقده.

"لا تسأل نفسك بماذا أذنبت؟ فنقدك المعلن لشيطلائكي أو شيطلائكية أو حديثك بلهجة قاسية أو حتى ناعمة وفيها سخرية، كل هذه مرادفات لهجوم واتهامات عند الشيطلائكيين، ولا مجال أن تبرر لهم أنها توجيهات أو نصائح، لن يقتنعوا كالعاديين بذلك، فغالبًا ما ستكون هذه الهجمات مرتدة، وسرعان ما سيتحولون لدبابيس توجه رؤوسها الحادة لأكثر المناطق الحساسة فيك. الشيطلائكيون يعرفون تمامًا أين تكمن الثغرات، لكنهم يتحاشونها طالما أن العلاقات صافية وجيدة، ويعرفون أيضًا أين توجد مواطن الضعف ويتفننون في إصابتها إن لزم الأمر. لن تتخيل أبدًا ذلك إلا إذا وقعت في الفخ بين براثن شيطلائكي، واكتشفت من لسعات لسانه أنه يعلم كل ذلاتك، ويحصيها لك دون أن ينطقها بالإشارات والإيحاءات والغمز. أنت تعيش في كتاب ألغاز مفتوح، فدع عقلك يعمل ليفهم، لتكتشف أنه كان على علم بكل مواطن ضعفك دون أن يظهر لك ذلك طالما أن علاقتك معه طيبة. وليتك تفهم أن التعامل بسوء الظن مع الشيطلائكيين أمر يحبطهم ويزيد الأمور سوءًا؛ لأنهم ليسوا على كوكب آخر، إنهم معنا على الأرض، تختلف قيمة هذه الأمور باختلاف درجة شيطلائكية من أمامك. أنا كشيطلائكية وجدتني أهاجم بعنف كل من يهاجمني بنقدٍ، حتى أمي لم تسلم مني. جدتي أيضًا منذ سنوات بعيدة قتلتُها بهجوم، لكني تخليت عن هذه الخصلة مع جمال؛ لأنه كان أكثر هجومًا مني عليّ. أتراه الحب يهذّبني؟ أأحببته فعلاً؟ أكان يجب أن أمارس معه كل فنون القتال ليظل محبًّا لي؟ أيعيد الحب ترويضي وبعثرتي ولملمتي من جديد؟

"جمال، أتذكر؟! كنت تنتقدني وأصمت. كنت أحيانًا تحاول تهذيب طباع؛ي لتتناسب معك، لكني كنت أستقبل بهدوء وأحيانًا بدموع العجز عنك. أهذا يعني أني أتعرى من خصالي المتأصلة بي أمام حبك؟ ألم يكن للتنازل عن بعض خصالي أمامك قيمة؟

"أذكر حين كنتَ تسير أمامي عندما نتعثر بمرآة في الطريق؛ لتخفيها عني حتى لا أنظر فيها. تتقدم عني لتقف أمامها وتمنعني من النظر فيها مداعبًا قدميَّ بخطوات الأمام والخلف، والمرآة تنظر لنا وهي في حيرة من أمرها تتساءل من هذان المجنونان اللذان يتراقصان أمامي في قارعة الطريق.

"لم تكن المرآة وحدها التي أقرت بجنوننا؛ لأن الرصيف لم يكن صائمًا عن المارة..
هؤلاء المارة حسدوك ياحبيبي فتركت جنونك هناك أمام تلك المرآة ،وأصبحت اليوم عاقلاً جدًّا. أفتقد جنونك الذي حولته الحياة إلى عقلٍ. أَعد إلي جنونك! أنا بدونه في نظرك خرقاء. ولا تسألني أن أتعقل مثلك؛ فقد عشقتك مجنونًا، والجنون منذ البداية كان عقيدتنا.

****

أغلقت الكتاب؛ لأنني يئست، فهي لن تكف عن الكتابة عن صدمتها في جمال حتى رحلاتها معي في الأحلام لم تنسها صفعة جمال.

نامت من جديد، وعليّ لقاؤها.

- ألاتزالين غير قادرة على تخطي خيانة جمال؟ ألا يُنسيكِ حبي كل فواجع الواقع كما أخبرتيني؟!

- إن قيمتي قبل وبعد حبك، فستدرك أنك حققت الكثير من الانتصارات والفتوحات على أراضيّ؛ لقد غزوتني يارجل، ورفعت راياتك على كل قمة بي، باتت جبال شراستي تلالاً ثم كثبانًا ثم سهولاً أمام فيضانك المفاجئ الذي يحطم كل سدودي بهدوء، وبدون أن يفقد نقطة بوحٍ واحدة هباءً. إنني أكبت كيميائي بكل تفاعلاتها حتى لا تنفجر بوتقاتي أمامك فتصيبك بالذعر مني. فشيطلائكيتي

بكميائها إرث قديم، كالأديان المنسوخة، أتعرف من نسخها؟ إنه عشقك نسخها لتناسبك، تكون بمقاس هدوئك.

- انفجري ياميريهان؛ فأنا الأقدر على احتواء كل انفجاراتك.

- لا أريد أن أعود إلى الواقع. خدرني! خدرني وخذني؛ لأظل أدور في ما لا نهاياتك. هيا يافارس!

- ليتني أستطيع فعل ذلك. لكن كل ما أضمنه لكِ أنني في دمك، وسأظل في دمك. إن شين هي فصيلة دمك، وأنا شين.

- أتعلم؟ جدتي كانت تحمل نفس فصيلة الدم التي أحملها. فللشيطلائكيين فصيلة دم مختلفة عن البشر، قد أرمز لها بالرمز "ش" كما أخبرتني أنت الآن. يمتلكون في صفاتهم نفس صفات الأشياء التي تبدأ بحرف الش ين؛ فهم من الشقاء الذي يلازمهم رغم مظهرهم الذي يشعر الناظر إليه أنهم في راحةٍ غالبًا ما يكون داخلهم شقاء من الطراز الذي لا يطفو على سطح وجوههم، بل يستوطن أرواحهم،كمعاناة جدتي الأبدية من زواجها بجدي مرغومة، أذكر أنها روت لي أكثر من مرة أنَّ أخاها خيّرها بينأان تمضي على عقد زواجها برجل لم تره في حياتها إلا ليلة زُفَّت إلى قبر سريره، وبين الإلقاء بها في بحيرة أمام منزلهم. فزفه القدر إلى قبره بعد معاناتها معه عشر سنوات، بعد أن انجبت منه ثلاثة أبناء، منهم أمي التي كانت تميزها جدتي عن البقية، كما ميزتني أنا عن بقية أحفادها.

- إنها قاعدة ياميريهان. قاعدة مسطرة في تاريخ الشيطلائكيين؛ أن ترغم شيطلائكيًا على أمر يحدد مصير حياته، يعني أن يموت طوال حياته من الداخل، ويتحول إلى مجرد كائن أجوف وسريع التعصب ويتلذذ بمضايقة الآخرين وقد كانت جدتك كذلك.

- أتعلم يافارس؟! كنت أقرأ مأساتها في كل محاولاتها لمشاكسة أحدهم، وهي تسير في الطريق تتبضع أو تمازح معارفها لسرقة بضع ضحكات تعطي طعمًا لحياتها التي كرستها لتربية أبنائها بلا رجل. لا أدرى كيف كان من السهل على جدتي الحياة دون رجل بقية عمرها، لكن هذا ينتشر في بلاد الشرق، حيث تقرر المرأة أحيانًا الحياة دون رجل عندما يقهرها رجل لتقبل رجلاً، وتجبرها النساء حولها على القبول حتى لا تتحول إلى عانس أو معيوبة أو... إلخ من ضغوطات المجتمع العقيمة. في الشرق فقط نحفر القبور لبعضنا البعض، ومن يتمرد يدفن بالقذائف التي تلتصق به حتى وفاته، خاصة في مجتمعات الأرياف التي انحدرت منها جدتي، ربما أيضًا سبب تعاستها انحدارها من أصل تركي، تساءلت كيف كان باستطاعتها الحياة هكذا بكل هذا الحجم من المعانا ، أرملة تمنت أن تترمل، فترملت، لكن القدر منعها من الحياة لنفسها، وربط في عنقها ثلاثة أبناء عاشت لهم بكلها الكامل دون أن تنقص من نفسها لشيء آخر؛ لتسعد بهم في شيخوختها وبأحفادها، عاشت دون رجل. أعتقد أنها كانت تحيا على بقايا ذكرى رجل قديم يسكن خيالها. أخبرني يافارس هل يمكن أن تكون قد تواجدت في أحلام جدتي؛ لتعينها على تلك الحياة؟

- أعتقد أن جدتك لم تكن شيطلائكية حالمة مثلك ياميريهان. أكيد اعتمدت على ذكرياتها المخزنة لأوقات الجفاف العاطفي.

- نعم . فعلًا ربما كان ذلك الذي روت لي أنها كانت تسابقه في الحقول وقت كانت شابة، وقبل أن تُزف لقبر جدي في زفافٍ ارتدى فيه قلبها الأسود، فلا مكان في مأتم الزفاف هذا إلا للأسود، وكأنها تنبأت أنها ستظل ترتديه طوال عمرها بعد وفاته، مجبرة على ارتدائه من المجتمع، فإن ارتدت غيره بعد وفاة زوجها، سيقذفونها بتهمة البحث عن زوج، كم عاشت تعيسة، تعاند تعاستها بابتسامة حياة، أو ربما حُب قديم مندثر، ربما أبقى هذا الحب المندثر قلبها يقظًا متشبعًا بالحُب وقت صيامها عن كل شيء مذكر فيما بعد. كانت جدتي تحبني جدًّا، كانت

تدافع عني عندما كنت أخطئُ في صغري، وكانت تفضل أن تنزهني دونًا عن إخوتي الذين يبكون ولا تبالي به ، كانت تبالي بي وحدي، ولكني خذلتها عندما احتاجتني. سببتُ لها ألمًا كبيرًا أصاب قلبها وماتت بعدها بعامين، لم أكن حفيدة جيدة لشيطلائكيةٍ كجدتي، ولأننا شيطلائكيتان كان على أحدنا خذلان الآخر، وغرس ناب جحوده في رقبة الآخر، ولكن لم يكن ذلك بإرادتي؛ لقد جاء عليها وقت شعرت فيه أنها تتحول إلى طفلة صغيرة أصغر مني، أصغر بكثير، كنت على أبواب شرنقة المراهقة والنضج، وكانت هي على مشارف الطفولة رغم التجاعيد، وكنت لا أتفهم وضع عجوز مسكينة كجدتي، بت أعمالها بنبذٍ وعدم تفهم لوضعها، كانت بحاجة لرعاية من نوع خاص وكنت أظنها مجنونة، كنتُ أحلم بكوابيس تمثل هي دور البطولة فيها، فأستيقظ وقد غمرني عرق الخوف منها، كنت أمنعها من الجلوس على سريري خوفًا من تلك الكوابيس، كانت تتحسس لطلبي هذا، وتنزوي في جانب بعيد تهذي وتبعثر الكلمات استنكارًا، وتلعنني ألف مرة بلسان طفلة وبختها أمها للتو، كنت لا أبالي بهذيانها، لكني كنت أعلم أنها تخطئ فهمي، بالرغم من أنها كانت تفهمني جيدًا قبل أن تسلبها الشيخوخة شيطلائكيتها، فبمجرد أن خلعت جلد الشيطلائكية حتى باتت غريبة عني، وقريبة من الموت. اليوم كلما تذكرتها أحزن؛ لأني أضع نفسي في نفس الخانة التي كانت فيها، ولا أتقبل ألا تفهمني حفيدتي في المستقبل بأي شكل من الأشكال؛ لأنني في الأصل السبب في وجودها. لي صديقة تحن لجدتها على صفحات الفيس بوك كل ليلة تنشر منشورات الحنين لها، كلما التصقت عيناي بهذا الوفاء العابر أمامي من حفيدةٍ لجدتها، أشعر بالعار مما فعلته بجدتي في أوج حاجتها لي، أشعر أنني كنت الحفيدة الأكثر سوءًا على الأرض.

- وما تراكيب فصيلة الدم الشينية غير الشقاء يا ميريهان؟

- من شيطلائكيتهم تولد شقلبة الأمور. فهم أيضًا أساس شقلبة كل الموازين والقوانين التي تعارض رغباتهم، قد تتغير حياتهم رأسًا على عقب في لحظات

اندفاع مجنونة كتلك الشيطلائكية التي تتعطش دائًما للحب من أجل لحظات البدايات، فإذا حدث، تزول رغبتها فيه حتى لو كانت قد تكبدت العناء للحصول على ما تريد.

يغمز بعينه: أعرف هذه الشيطلائكية!

تابعت: الأمور المثيرة الصعبة تصبح مغرية، تجعل لعاب الشيطلائكيين يسيل لها، خصوصًا يوم كنتَ تتغامض عليّ وتغلف نفسك وتأتيني تارة في الحلم كصوت، كنت لا تريد أن تكشف كينونتك وهويتك الحقيقية، لكني كنتُ أعلم أنك تُخفي بداخلك رجلاً عملاقًا، من حقك أن تخفيه عن الناس؛ لأنه حقيقة لا أحد انتبه له إلا أنا، فكنت أنا الأحق بك، لا أحد يستحقك منهم إلاي، لا أحد سيفتح غلافك إلا أنا، فأنا أحب الأشياء المغلفة. غالبًا هذا يعني أنها جديدة، لم يستعملها أحد، كم تغريني الأشياء غير المتاحة للجميع.

كان يدور في عقلي كلام كثير في صمت، وأنا أسمعها... آه لو تعلمين حقيقتي المنطقية ياميريهان! قاطَعتْ حديث عقلي الصامت الذي لا تسمعه بغواية شهق لها قلبي عندما قالت:

- يثير جنوني يافارس حين يسقط الضوء على صدرك، فتظهر لي بضع شعرات من صدر رجولتك، وساعديك القويين، اللذين يلمعان حين يسقط عليهما الضوء أيضًا، هما بلون الحنطة الشهي، تحركا أخيرًا وغافلاك؛ لأراهما أنا وأجن بقوتهما. وحدي تفاجئت بجسارتك وانكشاف صلابة عودك، هنا قررت أن أغرقك بي كما أغرقتني بك على غفلةٍ منك ومني.

- ياشيطلائكية، تقتلينني باشتهاءاتك.

ابتسمَت ابتسامةً شهيّةً، وردت:

- أرأيت أنك تكتشف تراكيب الشين معي؟ من الشين أيضًا شهوة. والشهوة تلسع لأنها نارٌ وماء، وليست ماء فقط كما يعتقد النمطيون.

- هذه الشقلبة التي اغتالت مشاعري نحوكِ أيضًا من فصيلة شين يافاتنة. أليس كذلك؟ فقد شقلبتي حالي يابنتَ اللذينَ... ما كانت لتحدث إلا من شيطلائكية!

- معي شفرتك، والشفرة من فصيلة شين يافارسي النبيل. أنت تكملني تمامًا وتتوافق معي في نفس الوقت. فعندما يكون الحديث عن الحُب عند الشيطلائكيين فهذا معناه العشق؛ فالدرجة الأولى من درجات الحب لا تكفيهم، لا يعترفون إلا بأكثر درجات الحب شراسةً. ففي عشقهم هم الشموع الدامعة بوقارٍ في ليلٍ صامت. فعندما يعشق الشيطلائكيون فلا سبيل أن يُنسى المعشوق تحت أي ظرف، فهم يبحثون دائمًا عن العشق وليس الحُب، يشعرون أنهم يستحقون أن يعيشوا العشق بكل درجاته ومنازله. وفي نظرهم: الحُب متداول للجميع، بينما العشق موجود للشيطلائكيين فقط. فهم يعتنقون ديانة العشق، ويبحثون عن رشفاته كلما ظمئوا، حياتهم لا تكتمل بلا عشق يهزها هزًّا يفرون ممن يلقون على مسامعهم كلمة (أحبك)، بينما يرسخ عشاقهم في ذاكرتهم فقط إن خانهم الحظ في الاقتران بهم. هو العشق فقط الذي تعتمده قلوبهم. والحب لا يموت إلا بعشق.

- أعشقتِينني يا ميريهان؟

- رغمًا عني فعلت؛ لأن عشقك أنقذني من أكثر من حب كاد يبيدني ويدفنني في مقبرة الجنون. أنا مدينةٌ له، كل حب هو وهم مادام لم يتحوّل إلى عشق، وكل عشق هو وهم مادام لم يحوِ التضحيات وإفناء الذات من أجل المعشوق.

- وماذا فعلتِ لي من تضحيات؛ لأتاكد أنكِ وصلت لمرحلة عشقي؟

- أكبر تضحية ضحيتُ بها لك هي نفسي. تركتها لك بمنتهى الرضا. ألست هاربًا مثلي؟ أقدر هروبك وتضحيتك لأجلي. أخبرني أنت كم كلفك عشقي من تضحيات الآن؟

- كلانا أفنى عمرًا من عمره؛ ليكون للآخر. كلانا أجّل حياته ليحياها بكل تفاصيلها مع الآخر في حُلم. ولو أخبرتك بحقيقة ما ضحيت به ستتعجبين. لكني لن أفعل!

- أخبرني بكل شيء بنفسك؛ لأنني أريد أن أعلم منك قبل أن أفاجئكَ بأني على علم بكل شيء. هل تريدُ أن تتفاجأ؟

قلتُ وأنا واثقٌ أنها لا تعلم شيئًا: فاجئيني إذًا!

- أنت شيطانٌ طيب وقع في عشقي.

أصابني تصريحها بالخوف، ارتجفت كل عضلات وجهي، لم أستطع النطق، وجدتها تضع يدها على فمي، وتقول: شششششش. و"شششششش" تابعة لفصيلة شين التي نتحدث عنها. اصمت؛ لأن الصمت هو أبلغ ما يمكن فعله خلال حدوث أمورٍ لامنطقية.

- لا! لن أستطيع! منذ متى وأنت تعلمين؟

- لا تسألني ذات يوم ما هذه الكلمة التي أصف نفسي بها وأكررها كثيرًا، ربما تماديتُ في شرحها لك، في حين أنها لا يمكن أن تُشرح. إنها تُثبت أنني أعرف من أنت، وأنتمي لك بنصِف مني، لذا شششششش، و دعني أُكمل لك منظومة شين.

لم يكن بإمكاني فعل شيءٍ فعلاً، إلا أن أصمت، وأراقب ملامحها وهي تحدثني عن فصيلة الدم التي جمعتنا في حلم.

- الشيطلائكيون ياشيطاني الطيب هم الشهد الذي يطمع الآخرون في الوصول إليه؛ فتراهم يضيئون أي مكان يتواجدون فيه، ويشعر من حولهم بغيابهم بشدة، ربما ينبعث من الصخب الموجود بداخلهم طاقة تعلن عن نفسهم لمن حولهم. الشيطلائكيون هم قِبلة يتجه إليها العاديون، ويبحثون عنها؛ لأنهم يدركون جيدًا أن أقلَّ رد فعل منهم نحو أي شيء يعود بإيجابية كبيرة عليهم. غالبًا ما يتم استغلالهم، ربما يستسلمون لاستغلال الناس لهم برغبتهم، ليس سذاجة منهم، بل رغبة في الزهو بأنفسهم داخل أنفسهم؛ فابتسامة فتاة شيطلائكية تشارك صديقتها في جولة تسوقية لبائع قد تجعله يخفض لصديقتها ثمن ما اشترت إلى النصف. حتى وإن كانت تلك الشيطلائكية قد ابتسمت بدون قصد، لا تسأل ما السبب؟ أو ماذا يختبئ تحت نظراتهم أو خطواتهم؟ فهو سر غير معروف؛ فهم كتلة مميزة وجذابة تسير على الأرض. هم مغناطيسيون يجذبون بلا رحمة وبتلقائية. ربما هم من يحفظون للكرة الأرضية توازنها بمعادلة المجال المغناطيسي لشحنات النمطيين المضادة المثيرة للرتابة. أنا متأكدة أن هناك في العالم الكثيرسن منهم غيرنا.

- وماذا عن شمولهم المستحيل ياشيطلائكيتي؟

- هم ناقصون يبحثون عن الشمول، ربما الشمول مستحيل ومستعصٍ كتلك التي نعتت نفسها بالمستعصية على صفحات الفيس بوك، حتى لا يحاول أحد اللعب بقلبها، لكن المسكينة لم تكن تعلم أن وصف نفسها بالمستحيلة يعني أنها مصدر جذب لألف رجل يحاول تحقيق رجولته على استحالتها؛ ليكون هو الوحيد الذي فك شفراتها المستعصية!

- أيضًا أنا أعلم الكثير عن تلك المستعصية، وعن هؤلاء الذين استقطبتْهم دون أن ترمش لهم برمش، وهم كثيرون في الحياة، وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، يستمتعون بشدة بغزو أنثى تنعت نفسها بالمستعصية. وكلما زاد

استعصاؤها زادت متعتهم في كسر قلبها بمجرد استسلامه، ربما هي قررت الانتقام من جميع الذكور، وعممت الكيد ونصبت الفخاخ للجميع تحديًا لمجتمع كامل يسجد كل يوم لتمثال ذكر الشرق ويبرر كل يوم جرائمه العاطفية. ولأنها شيطلائكية فضلت أن تكون شاملة الاستحالة، ومستعصية السقوط بين يدي الجميع.

- تتحدث عني كما لو كنتَ نفسي. لكن أتعلم هذه الشيطلائكية سقطت بين يديكَ بمنتهى الأريحية. أنت فقط من لم تستعصِ عليه!

- وماذا بعد؟ ماذا بعد في جعبة السيدة شين؟

- الشوق ذاته في صورة بشر، والشمس الحارقة والدافئة في آن معًا. فويلٌ لعاشق تعشقه شيطلائكية ويخذلها، ربما سلطت عليه سحرة وكهنة معابد العشق، فيصاب بخيبة في ذكورته وقت حاجته لها يومًا ما. العشق بيننا في حد ذاته لعنة.

****

- اتفضل! اتفضل ياسيدنا الشيخ أبو الوفا. ثوانٍ وقهوتك تكون جاهزة، وهدخل أبص عليها لو نايمة هدخلك عليها في السكات، تقرا عليها؛ لأنها لو عرفت إني جبتك هتهدل الدنيا!

- براحتك خالص ياست أم ميرهان، أنا أهو قاعد ومستني، هجهز الماية اللي معايا والورق ده عقبال ما انتِ تجهزي البنت.

- آه والنبي ياسيدنا الشيخ! دا جوزها هيتجنن عليها وهي مش حسّاه خالص.

رأيت أمّها تخطط؛ لأن تضعها بين يدي شيخ يقرأ القرآن عليها. لم أكن أخشاه، كنت أخشى عليه منها، فسوف تقطعه إربًا بأسنانها إن دخل عليها، وقطع

حُلمها الذي أنا معها فيه، ففي نفس اللحظة التي دخل الشيخ عليها الغرفة فيها، كنت أنا وهي قد بلغنا ذروة النشوة في الحلم، كنا سننجب قبيلةً من الشياطين الليلة، كانت ترتعش، تنتفض، تصرخ صراخًا يتردد فيه ألف صدى، ألف شخللة، تجلجل الكون اللامرئي بصوتها، لقد سمعت كل الهوام صوت عشقنا واندامجنا. لقد صفقت لي كل ذكور العفاريت. لقد أبلغوا سيدي أني اليوم أُزفّ لها، اليوم أنا فحلها... رجلها... شيطانها العنتيل... وهي كانت عاهرتي البريئة.

***

أم ميرهان بصوت عالٍ: ياندامة! يالهوي! أعوذ بالله... أعوذ بالله... ياسيدي الشيخ ابو الوفا شايف البنت بيحصل فيها إيه؟ ايه ده ياشيخ!

- إنه عفريتٌ عنتيلٌ ياأم ميرهان! بنتك ملبوسه! واللي بيحصل قدامك دا متأخر.. كان لازم تجيلي من بدري... دا سحر إسود!

- يانهار إسود! يانهار إسود! ياما قولتلها تصلي! ياما قولتلها ارجعي لربنا واقري قرآن وبطلي العفاريت اللي بترسميها وتعلقيهالنا على الحيطه دي!

- بنتك غايبة عن الحياه من مده طويله. وكان لازم تاخدي بالك إنها مش طبيعية. فين جوزها؟

- مسافر. وبيكلمني كل يوم عايز يتطمن عليها.

- هوَّا كمان معمول له سحر. بس أخف منها وتقريبًا بدأ يتفك من عليه من بعد ما حَج.

أم ميرهان وهي تبكي بحرقة: ياحسرة قلبي عليكِ يابنتي!

****

أشجار البخور التي تحرقها في قلبك كل ليلة لي

رائحتها جعلت قلبي ينبض بكلمة واحدة هي:

رجُلي!

****

اتجه عفريت من الجان نحو سيده الدجال المسئول عن سحر ميريهان وزوجها، وأخبره بما يحدث، وبأن شيخًا يقبع فوق صدر المسحورة وهو يعمل على فك السحر الآن، وأن الشيطان المسئول عن هذا السحر فقد أهليته لمستعمرة العفاريت التي ينتمي إليها، لكن لم يتم تفعيل هذا بعد، وفَقَد أيضًا إحساسه بأي تنبيه يرسل إليه من قِبلنا، إنه مغيّبٌ تمامًا ولا يستجيب لأي إشارة، وهو يهددنا جميعًا بالخطر إذا لم يخرج منها ويتحرك بعيدًا عن هالة القرآن التي يبثها الشيخ، سيتمكن الشيخ من فك شفرة مستعمرتنا جميعًا من خلاله، وسنحرق جميعًا! النجدة... النجدة... نرجوا الرد سريعًا!

- سأقوم حالاً بحرقه وحده داخلها. لسنا مستعدين لتحمل حماقة شيطانٍ عاشق طوال الوقت، مهما بلغت مكانته عندي. لن أستطيع تحمل المزيد من أخطائه!

- سيدي، هل تعلم ماذا تنوي أن تفعل؟ ستحرق أكثر الشياطين خدمةً لك!

- حتى أحميكم ياأغبياء! يجب الإسراع في تدارك الأمر، سأقوم الآن بحرقه!

أخد الدجال طلسمًا وشفرةً على حجر من نار، وقام بوضعها في ماء به دماء، ونفث بها وصرخ ببعض الحروف، واشتعل الدخان حوله والنار. الشيطان يصرخ في حلم ميريهان وهو يعلوها... يصرخ... يصرخ... ميريهان تظنه يصرخ منتشيًا. تجرح ظهره بأظافرها. تقُبِّله في فمه. يبعد فمه ليكمل الصراخ. تزيد من

غرس أظافرها في ظهره. ينقشع الجلد البشري الذي تصوّر لها به، ليظهر جلده الأحمر الذي طالما واراه عنها، تحمّر عيناه. يزيد لونه حمرة. تفتح عينيها فتراه أحمر وشيطانًا ظاهرًا على حقيقته. أغمضت عينها وتابعت الجذب والتقبيل.

تمتمتْ: أنا لا أخشى حقيقتك! حتى لو أظهرتها لي ورأيتها بعينيّ أنا لا أخشاك. أنت وحدك أعطيتني ما أريد. أنت طيب وجميل. أكثر طيبةً من مجتمع لا يتوانى عن إيذاء أي أحدٍ.

- آااه!

دخان كثيف حلّ محل جسده الأحمر، وبدأ الدخان يتلاشى: أين أنت؟ أين أنت؟! لا يمكن أن تختفي وتبتعد بهذه الطريقة! أرجوك عُدْ! عُدْ!

فتحت عينيها فجأةً، فوجدت الشيخ أبا الوفا جالسًا يقرأ القرآن، وينفث في وجهها، ويغرق وجهها بماء مقروءٍ عليه.

- من أنت؟ وماذا تفعل؟

- حمدًا لله على سلامتك ياست ميريهان!

- انتَ وديت الشيطان فين؟ قولي ليه عملت كده ليه؟ ليه؟

- الشيطان مش أنا اللي حرقته، أنا كنت هحرق مستعمرة كلها، لكن المشعوذ اللي باعته هوه اللي حرقه. كنت خلاص قربت أجيب شفرة مستعمرتهم!

- انتَ مين انتَ علشان تعمل كده؟!

- اهدي علشان انا عارف قد ايه أثّر عليكِ! اهدي يابنتي! اهدي!

قرأ الشيخ عليها آيات من الذكر الحكيم، فنامت. ومازالت أمها تبكي، وتمسح على شَعرها.

- دعيها تنام ياأم ميرهان، وعندما تفيق ستشعر أنها بحالٍ أفضل. ستكون بخير إن شاء الله. اطمئني! اطمئني!

****

قرأتُ وجوه رجالِ الطريق

لم أجد شاربًا لا تكسوه آثار الحمرة

يقتاتون على حمرة النساء، وهل من مزيد

وحدك ياأنت تقتات على أحمري!

* * *

شيطلائكية بالوراثة

استيقظت ميريهان فجرًا، وكتبت في كتابها المزركش:

"أدخل يدي في مخيلتي، وأستخرج منها ذلك الماضي الذي ولدت فيه شيطلائكتي وبدأت الحبو ثم المشي والركض، وكبرت بداخلي ثم كبرت وفي كل مرة كانت تكبر يحدث داخلي نوع من الضعف غير المعلن، تتكاثر شيطنتي بالذنوب والخطايا، ثم ألجأ إلى محوها بممحاة بيضاء ملائكية الطراز، وتتفاوت الذنوب بداية من تمردات المراهقة المتأخرة، والركض خلف الظهور، ومغامرات الحب الملتهب في بداياته، ونهاية بحالاتِ الازدواج الداخلي التي تصيبني كرد فعل لتغير مهامي في الحياة من طفلة واسعة العينين قليلة الكلام لمراهقة تريد أن تتحدى كل شيء وتصل للصفوف الأولى في كل شيء يجعل من حولها يصفقون لها، ثم لشابة تعشق في صمت فتدمع جوارحها ليلاً خشية الانكسار، لعاشقة مكبلة بعشق لا تعرف نهايته، ثم خطيبة تترقب انقضاء الزمن لتحصل على أحلامها منه مقابل ذلك الصبر المدفوع مقدمًا من محصلة عمرها وانتظاراتها، لزوجة سرقت الغربة منها زوجها ليلة زفافهما، ما أقسى تغيير درجة حرارة العشق على قلب امرأة شيطلائكية، ماذا كان يمكن أن يحدث نتيجة تغيير هذه الحرارة إلا إصابتها بفيروس إنفلوانز التناقض، وشيزوفرينيا حادة في القلب، عاشت كشخص أبيض بقلب أبيض وشخص أسود بقلب أسود، فكيف كان لها أن تحيا وتتوسط الشغاف؟ بعد أن ختم التطرف ختمه على قلبها.

سرعان ما يتكاثر الأسود فيسير الأبيض خلف خطواته يمحوها بشيء من بياضه تاركًا أحيانًا أثرًا وراءه، هذا الأثر أحيانًا لا ينمحي، ويبقى عالقًا داخل فجوات الذاكرة، ولا يخرج إلا بشيء من الحنين للماضي في جلسة صفاء تجمع العائلة عندما ينقطع التيار الكهربي كعادة الكهرباء هذه الأيام، ولا يجدون ما يفعلونه سوى العودة إلى الماضي والحديث عن بقايانا منه، أو نعي ألم بائت يطفوا وجعه على سطح القلوب حين تذكره، أو رغبة في إيقاف الزمن الذي يمضي للمستقبل دون انتظار.

ففي وسيلة التنقل الأكثر انتشارًا في بلدي... عندما ألتصق بنافذة الميكروباص أشرد، وأهذي في صمت مع عقلي حول تلك الحالة الغريبة التي صنفت بها نفسي، وصنفت بها من حولي إلى شيطلائكيين ولاشيطلائكيين. ليس ذلك فقط بل وصل بي الأمر إلى التحرّش بوجوه المارة لمعرفة ما إذا كان أصحابها شيطلائكيين أم نمطيين. ربما النمطيون يفضحون أنفسهم بسهولة لكنهم كثر. وعليّ أن أبذل جهدًا مضاعفًا لاكتشاف الشيطلائكيين في الواقع؛ لأن العالم حولي مزدحم بالنمطيين، لا أدرى ما السبب وراء رغبتي في البحث عنهم. فعلى عكس الواقع توجد العوالم الافتراضية التي تتيحها لنا الشبكة العنكبوتية بكثرة هذه الأيام، والتي يسهل علينا من خلالها اكتشاف أهل العمق والذين يعيشون ألف حياة عليها، ويتجاهلون حياتهم الواقعية التي يغتصبها مجتمع النمطيين بلا رحمة!

عندما أطلقت هذا اللقب كاسم مستعار لي على صفحات الإنترنت، رجمني الناس بعبارات الكفر، وأشعروني أني رذيلة تمتطي جواد الجنون، فلاحقوني بالنبذ والتجني عليّ بتهم ليست مني في شيء، لكنني لم أبالِ بهم كعادتي. آخر ما يمكن أن أبالي به هو آراء من لا يقنعونني، فلا يقنعني إلا أصحاب العمق ممن يفكرون بقلوبه ، ليس تغطرسًا مني، بل إنقاذًا لذاتي من التقولب والتكعب داخل علبهم التي صنعوها لأنفسهم، ويريدون فرضها على الآخرين. الصراع سُنَّة

الحياة، وهؤلاء إن لم يجدوا من يصارعوه صارعوا أنفسهم، أما أصحاب العمق، كنوز البشر، فأنا أبحث عنهم دائمًا وسط الزحام والضجة، وهذا هو غالبًا سر شرودي، فأنا أنبذ من لا يتصرفون بعمق، أنبذ العاديين من البشر الذين يطلقون على أنفسهم أسماء عكس طبيعتهم؛ ليجملوا أنفسهم أو يبعدوا عن ذاتهم صفة ظاهرة فيهم، لكنني لا أفعل مثلهم، أنا أقر بحقيقتي علنًا، وأضع تصنيفي هذا أمام عيني وأعين الجميع، شيطلائكية أنا، ولا أخجل من كوني مزيجًا من السواد والبياض. شيطلائكية ترجو من الله إعادة صياغتها بما يزيد من بياض ملائكيتها على سواد شيطنتها لتنجو من العذاب. هذا ليس تفاخرًا بقبح ذنوبي المتمثلة في سوادي، بل هو اعتراف صريح بها وبما يعادلها من بياض، لا أعلم أسيقبله الله مني أم لا؟ لكن علي الاعتراف به، أيضًا إنكار الذنب لا يعد سترًا إن كان ظاهرًا، بل كذبًا مفضوحًا، ومن منا لا يذنب؟ الفرق أن هناك من لا يعترف بوجود جزء أسود به، أما أنا فأعترف، من النقاء والبياض الاعتراف بأن هناك سوادًا فاسقًا يحتل مساحة ما منك، كبرت أو صغرت تظل موجودة، فلماذا أكذب على نفسي وأنافقها مظهرة أني ملاك؟

ولماذا تجاهل النمطيون نصفي الأبيض وطاردوني بلعناتهم لمجرد أن الشق الأول من شيطلائكيتي هو من الشيطنة والسواد؟ لماذا حكمتم علي وأنا كلي نقاء؟ أليس كافيًا أن أكون نقية عندما أعترف بسواد ما يقطنني؟ أم تريدونني أن أدعي الطهر وأنكره لأكون مثلكم؟ يالزيفكم!

افهموا!

أن سمّيت نفسي اسمًا يصف بياضي فقط، سأكون منافقةً لنفسي. وإن سمّيت نفسي اسمًا يصف سوادي فقط، سأكون ظالمة لنفسي.

لا أنزعج إلا من السطحيين العاديين الذين لا يملون من ترديد الأحاديث المتداولة، والكلمات المستهلكة.

كلمة سأقولها لهم حتى يفيقوا من وضعهم المثير للشفقة، أقول لهم: "أنتم لا تستطيعون أن تكونوا شيطلائكيين! أنتم تسيرون بعقول وقلوب غيركم".

****

أين أنت يافارسي؟

أين اختفيت؟ انتظرتك طويلاً، ولم تأتِ.

هذا الفراغ الوقتي الذي يفصلني عنك باذخٌ في الظلم لوجداني.

لن أشفى منكَ أبدًا؛ فقد وصمتني بك للأبد.

****

أم ميريهان لأختها تفيدة: زوجها قادم غدًا. هي لا تعلم ولم تعلم بعد بعودته. ولو علم بما أصابها سيطلقها، لاداعيَ أن يخبره أحدٌ بشيء حفاظًا على حياة أختكنّ الزوجية. مفهوم؟

تفيدة: مفهوم . مفهوم ياماما. لكن لماذا ونحن نعلم أنه قد أصيب أيضًا بنفس السحر.

- لأنه رجل. وبالطبع سيكون غاضبًا إن علم أن عفريتًا كان يسكنها. عفريت عاشق كما قال الشيخ أبو الوفا. الحمد لله أنه خرج ف داهية تاخده. سأدخل لأخبرها بعودته غدًا.

دخلت الأم على ابنتها لتخبرها، فوجدتها قابعة على كتابها المزكش تكتب:

- عزيزتي، ما أخبارك الآن؟!

- أنا بخير ياأمي. لكن أشعر أن أحدهم اقتلع قلبي. هناك فراغ ما في الجزء الأيسر مني لم يعد على ما يرام.

- أنتِ بخير الآن. لا توهمي نفسك. لدي خبر جميلٌ لكِ!

- ما هو؟

- جمال قادم في الغد. وكان قد اتصل أكثر من مرة؛ ليطمئن عليكِ وقت كنتِ غائبة عن الوعي.

- أخيرًا عاد جمال؟ أخيرًا بعد ماذا؟

- تذكري أن تهيئي لعودته. ولاداعيَ أن تذكري أمامه أي شيء مما حدث. أنت الآن بخير وحياتك يجب أن تستمر، زواجكما يجب أن يستمر رغمًا عن أي سحر أو عفاريت. وقومي يابنتي وصلي ركعتين شكرًا لربنا أنه نجاكِ. الزواج أقدس من أي سحر وأي شيء مهما كانت العقبات التي تمران بها. يااا ه ياميرهان يابنتي انتِ لسه شوفتي حاجة دا ياما دقت ع الراس طبول. كوني قوية كأمّك!

- ولذلك تريدين أن تُدَقَّ نفس الطبولِ على رأسي أيضًا ياأمي؟ أمي لم يعد حضور جمال يهمني. جمال خانني!

- لا ياميرهان متقوليش كده. جمال ابن ناس ميعملش كده. دا كل ده تأثير السحر. إنه من عمل الشيطان. طب ابقي قابليه بكره واسأليه. هتحسي إن كل الأوهام اللي بتقوليها دي كلام شياطين!

- هاحاول ياأمي!

في اليوم التالي، استقبلوه بالترحاب:

- أهلاً بكِ ياحبيب حماتك. أنرت بيتنا ياجمال ياحبيبي.

- أهلاً بكِ ياخالة. كنت أود أن تكون ميرهان في انتظاري في شقتنا، لكن يبدو أنها مازلت غاضبةً مني.

- سنترككما على انفرادٍ لتتفاهما وتحلان هذا الإشكال. والله ياجمال يابني ميرهان بتحب، وزعلها ده علشان انت غبت كتير عنها.

ردت ميريهان:

أمي، أرجوكِ لا تذكري أسبابًا ليست صحيحة!

جمال في تعجب: وما الصحيح إذًا ياميريهان؟!

- الصحيح أني اعتدت غيابك. خذ حقائبك، وعد من حيثُ جئت.

- أهذا هو ردك الأخير؟ حتى بعد أن تعلمي أني أحضرت معي أوراق سفرك معي؟

- لم يعد قلبي كما كان!

الأم بصوتٍ حزينٍ: ليه كده يابنتي؟ ليه عايزه تخربي بيتك بإيديكِ؟ ليه ياضنايا حرام عليكِ؟ هي دي آخرة صبري؟ أنا هكلم الشيخ أبو الوفا تاني يجي!

(عفوية الأم جعلتها تنسى أنها أرادت إخفاء أمر السحر عن جمال).

- أمي، أرجوكِ الأمر لا علاقة له بصبرك وتربيتك لي ولا بأي سحر. أنا لا أستطيع أن أكمل حياتي مع جمال. وأقولها وأنا في كامل وعيي. لا شيطان يجثم عليّ ولا هواجس!

- جمال يابني، انا هسيبك انت تشوف مالها وإن شاء الله خير. هسيبكوا وأروح أعمل حاجة تشربوها.

نظرت ميريهان إلى جمال، وقالت:

- بتخونني مع ريهام ياجمال؟!

- لم يكن بيدي. كان هناك شيء ما يحركني لها رغمًا عني. وأعلم أن فعلتي شنيعة!

- وما الذي أعادك الآن؟!

- كانت علاقتي بها مجرد علاقة هاتفية. لم أخنكِ معها خيانة فعلية. وعندما تيقظتُ لما يحدث اتجهت إلى بيت الله، واعتمرت، وقمت بالحج حتى أتطهر من هذه العلاقة التي دنست زواجنا!

- وهل كانت ريهام ستكتفي بك على الهاتف فقط؟

- صدقيني هذا ما حدث!

- وحتى إن حدث أكثر من ذلك، أنا لم يعد يهمني أن أعرف أي تفاصيل حدثت.

- انتِ اللي مش عايزه تيجي أهوه! أنا جيتلك بورق وجاهز علشان تيجي معايا، وانتِ اللي لسه بتعندي. أنا كدة عداني العيب!

- عارف ياجمال؟ أسلوبك ده هو السبب الرئيسي في رغبتي إني عايزه أبعد عنك، كل حاجه بتحب تطلع نفسك فيها مش غلطان، مع انك غلطان، والاتهام دايما رفيق لسانك!

- إذًا لا جديد!

أمسكت بالكتاب المزركش، وأعطته له:

- خد الكتاب ده ياجمال واقراه وانتَ خارج من هنا. يمكن تقدر تفهم منه أنا إيه اللي حصلي في غيابك.

مد يده؛ ليأخذ الكتاب منها، وخرج.

****

"توقفت الساعة فجأة يوم اقترن اسمي باسمك على ورقة الزواج، كل التفاصيل المؤجلة أعلنت عصيانها عن التنفيذ، وعشقت التأجيل، وظلت مؤجلة، حتى استيقظ عملاقي المختل وأراد أن يتمرد عليها، كنتَ وقتها في المغترب،

وكنت بعدها أعاني، كنت أعلم أني أدخل معركة سأخسر فيها نفسي، وحدث. بكيتُ ليلاً كثيرًا، كيف استطاعت الحياة إبعادك عني بعد أن لعقت دفئك، أعطتني منك جرعة إدمان ثم فرت بك بعيدًا، وتركتني أترنح، ثملت حتى نسيت، نسيت أني زوجتك، بت لا أذكر حقًّا ذلك، كل ما كنت أذكره هو أني حبيبتك، كانت غربتك تزورني في كوابيسي، تغيظني، تخبرني أنك أحببتها هي دوني، ظلت تلك الكوابيس تتكرر يومًا بعد يومٍ، حتى اقتنعت فعلاً أنك أحببت الغربة أكثر مني، ربما لأنها أنجبت لك وقتًا جديدًا ليس لي فيه نصيب، وأنجبت لك صمتًا خنق لسانك، فعجز عن إخباري بأنك مازلت تحبني، كنت أريد أن أسمعها منك دون أن أجرّها منك جرًّا، كنت أريد أن تخرج منك دون أن أرشيها ببداية، حتى أصدق فعلاً أنك لازلت تذكرني. لم أكن أريدك أن تتذكر أني زوجتك، بقدر ما كنت أريد أن تتذكر أني حبيبتك.. عفوا بل أعني عشيقتك.

هذه الغربة تشتهيك فتنقص منك الكثير، اغتربت لتكتمل حياتنا فأنقصت الغربة اكتمالك عندي، وعندما عاندناها واجتمعنا معًا، تأخر الوقت عن شفائنا من نسياننا صهر عشقنا المتجمد، الذي جمدته الغربة في ثلاجة الوقت، هل دفعت لك الغربة ثمن اغترابي عنك؟ لتتفرد بك دوني رغم كوني معك؟ أهكذا فعلت بك الغربة؟ قتلت رسمياتها شيطلائكيتك؟ والمثير للعجب أن نقطة اختلافنا أصبحت أني لست نمطية، لم تكتفِ بتحوّلك وتريد أن تجعلني أتخلى عن شيطلائكيتي؟!

لم ندرِ كم يلزمنا من الوقت لصهر عشقنا المجمد؟ واستعادة هذا العشق من جديد. لا ترشوني بحُب، فأنا لا أقبل إلا عشقًا. وللأسف لم تعطني لا عشقًا ولا حُبًّا، ولا حتى اهتمامًا من النوع الذي أحبه، بل جئتني خائنًا. خنتني مع الغربة ومع امرأة أخرى.

****

لم يأخذ جمال الكتاب، ولم يكن مهتمًا لأن يقرأ ما كُتب فيه. فكر ألا وقت لقراءة هرطقاتها. فتركه له على كرسيّ في حديقة منزلها التي مر عليها وهو في طريقه لمغادرة منزلها؛ لتعيده إليها تفيدة مرة أخرى عندما وجدته مصادفة بعد يومين على الكرسي.

****

لا تنفخ في روحي فهي ميتة

وأنت لست ربي!

****

انطلقت ميريهان إلى عوالم أخرى. انطلقت ترسم وتقيم المعارض ترسم ذلك الشيطان الذي عبرها حدّ الاختراق. تشبث بها رغم كل التهديدات التي أصابته بسببها، تحنّ إليه. تطلبه من الله كل يوم على شكل روح. تتساءل بينها وبين نفسها ترُى أهناك شياطين بكل هذه التضحية والطيبة؟ أكان شيطانًا فعلاً؟ أم روحًا طيبة في صورة شيطان؟ ذلك الذي غزاها ونسب نصفًا منها إليه، وفعل لأجل أن تكون له كل المغامرات الممكنة وغير الممكنة، وأنهى بها ولها حياته، لا يمكن أن يكون روحَ شر، لقد وعدها في أشد لحظاتهما حميمية أنه عائد.

لملمت نفسها، واتجهت نحو البحر، شهقت هناك شهقات ساخنة، فأخذتها أقدامها نحو مقهى تراثي بجوار البحر، لتحدّث البحر، كان القرآن يُتلى في المقهى بصوتٍ جميل، لأول مرة تركز هذا الحد في الآيات: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} الآية 16 من سورة مريم. شعرت برهبةٍ شديدة حين استمعت لتلك الآية. اقشعر لها بدنها، وكأن الله كان يجيبها على استفسارها برسالة خاصة إليها. كل ما كانت متأكدة منه أن هناك أرواحًا طيبة في عوالم لا يعرف عنها البشر شيئًا... تتأثر ببياضنا... وقد تتأثر بسوادنا. ولأن أغلب البشر نمطيون، فهم

يرددون فقط أن هناك عفاريت شريرة وشياطين شريرة. في حين أن هناك أمورًا قد تحول الشيطان لروح طيبة كالعشق.

خرجت من المقهى، واتجهت نحو شارع تصطف فيه الثنائيات بعد خروجهم من الجامعة. توقفت قليلاً. سمعت صوتًا يقرأ شِعرًا وسط الجموع، والكتاب يغطي وجهه. لم يكن الصوت غريبًا أبدًا. كانت تسمعه كثيرًا في الأحلام، كان يقول:

ياسحر الكون

ياهذا الكوكب المسكون

أنا تايه_أنا مجنون

ساعات من ده

ساعات من ده

وأنا العايش كتير بين ده

وبين نداهه

لو تنده

أموت مفتون(*)

تمَّت بحمد الله

* * *

(*) من قصيدة مجنون للشاعر نبيل عبدالحميد ـ ديوان أهرام الجمعة.

عن الكاتبة

هبه عيسى: هي فنانة تشكيلية، وكاتبة. كتبت الكثير من المقالات والقصص القصيرة المنشورة إلكترونيًّا على الإنترنت، تخرجت من كلية الفنون عام 2007، مهتمة بالمرأة والمجتمع والماورائيات. مؤمنة بأن التغيير لا يتم إلا بتهذيب الوجدان من خلال الفن، ومؤمنة أيضًا بأن الثقافة ماهي إلا قلمٌ يعانق فرشاة.

***

لمتابعة الكاتبة وإبداء الرأي حول الرواية تواصلوا معها عبر الحسابات التالية:

facebook: https://www.facebook.com/Hebaeissaaa

goodreads:

https://www.goodreads.com/author/show/14593226.

الشكر من فصيلة الدم الشينية (من قرأ الرواية سيفهم ما أعني):

شكرٌ واجبٌ لكل من ساهم في إخراج "شيطلائكية"؛ لتكون بين أيديكم، شكرًا تُقال لكل يد امتدت لتساهم في نشر هذا العمل.

***شكرًا ياصغيرتي لأنكِ تحمّلتِ انشغالي عنكِ لأكتب، وأكتب. لكن أعدكِ أن أمدّك بشيء تفخرين به مستقبلاً، وأعدكِ سأمضي وقتًا أطول معك في الأيام القادمة.**

***شكرًا لزوجي الذي لا يكف عن دعمي، واستيعاب جنوني الروائي والفني.**

***شكرًا لنبيل عبد الحميد الشاعر الفيلسوف الذي اكتشفني، وأخرج ما بي من طاقات فنية في تعاويذه التي ستسحر الكون.**

***شكرًا للدار الراقية التي أنتجت هذا العمل... دار تشكيل للنشر والتوزيع.**

***شكرًا لهناء أختي الأم، وأيمن، وسارة، وسلمى... إخوتي الذين كانوا يتحملون حكايات الطفولة التي كنت أقصها عليهم.**

***شكرًا لأمي وأبي... فما وهبتماه لي لا يكفيه شكرٌ، ولا يكفيه حرفٌ.**

***شكرًا لوالدي زوجي على كل البهجة وحب الحياة التي علماها لي.**

***شكرًا لصديقاتي مي فايز، ورغدة أليف الشاهدتين على كل شيء.**

***شكرًا لكل المتابعين والأصدقاء على الفيس بوك.**

***شكرًا للظروف التي جعلتني أكتب "شيطلائكية".**